المجلة الأردنية للتاريخ والآثار
المجلّد ٨، العددان (٣+٤)، ٢٠١٤م

الملك المظفر تقي الدين عمر الأيوبي، ودوره في الدولة الأيوبية (٥٦٥-٥٨٧هـ/١١٦٩-١١٩١م)"

عصام مصطفى عقلة*، فوزي خالد الطواهية*

ملخـــص

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح جوانب من التاريخ الأيوبي، من خلال التعرف على دور أحد القادة البارزين في عهد صلاح الدين الأيوبي وهو الملك المظفر تقي الدين عمر، وبيان مدى اسهاماته العسكرية في الانتصارات، وتجسيد دوره الإداري والعمراني والخيري في عهد صلاح الدين، ومعرفة مدى صحة ما تذكره المصادر بشأن صدام جرى بينه وبين عمه صلاح الدين لتحقيق طموحاته السياسية الكبيرة، ومحاولة دراسة سيرته، وتوضيح جهاده في التصدى للفرنج الصليبيين، وفي تحرير الأراضي الإسلامية منهم.

الكلمات الدالة: تقي الدين عمر، صلاح الدين، الدولة الأيوبية، الصليبيون.

المقدمة

تبدو لأول وهلة أن دراسة السيرة للشخصيات التاريخية في التاريخ الإسلامي سهلة ميسرة. غير أن الباحث سرعان ما يواجه صعوبة وذلك لصمت المصادر الأولية، أو لمبالغتها عن تلك الشخصيات، لأن المصادر لا تعتني بالأشخاص إلاَّ بعد نبوغهم، فتترك الكثير من الفجوات في سيرهم، وبخاصة الحقب السابقة على النبوغ، إضافة إلى أن الميول والأهواء تلعب دوراً مهماً في رسم أدوارٍ محددة للشخصيات حسب قرب المصادر من السلطة أو بعدها، وما تحاول السلطة رسمه للشخصيات من خلال المصنفين المقربين منها.

ورغم تلك المحاذير تحاول هذه الدراسة، تناول في شخصية أدت دوراً مهماً في الصراع الإسلامي ــ الفرنجي الصليبي، وفي صراعات الدولة الأيوبية مع القوى الإسلامية المختلفة وهي شخصية الملك المظفر الايوبي. سيما لم تتم دراستها بشكل كامل، وإنما تمت ضمن دراسة حماة في العصر الأيوبي، مقتصرة على دورها في حماة، وحتى ان الباحث لامونتي (La Monte) حين درسها سنة ١٩٤١م اقتصر في دراسته على الدور العسكري لها، وكانت تنقصه الكثير من المصادر التي ظهرت بعد سنة ١٩٤١م[1]. ولذلك تغدو هذه الدراسة من الدراسات المتكاملة تقريبا عن تقي الدين، التي تصدت لتحليل مواقفه وتبيانها.

* قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث ٢٠١٤/١٢/٤م، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠١٥/١/٢٢م.

1. John La Monte, Taki Eddin, Prince of Hama, The Muslim World, vol 31, 1941, pp149-160.

 © ٢٠١٤ عمادة البحث العلمي/الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

اسمه ونسبه وولادته:

هو الملك المُظفَّر تقي الدين عمر بن نور الدولة شَاهنْشاه بن نجم الدين أيوب بن شَاذِي بن مروان الكردي[٢]، أكبر أبناء نور الدولة شاهنشاه الذي كان بدوره أكبر أبناء نجم الدين أيوب[٣]، والشقيق الوحيد من الأب والأم لصلاح الدين يوسف[٤].

صمتت مصادر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ومصادر النصف الأول من القرن السابع الهجري/ النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي المعاصرة لتقي الدين أو قريبة العهد من حياته، عن تحديد تأريخ ولادته أو تقدير عمره عند وفاته، رغم ولعها الكبير برصد تواريخ ولادة أفراد الأسرة الأيوبية البارزين، أو تقدير أعمارهم عند وفاتهم، وهو ما فعلته مصادر القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين التي تم الإطلاع عليها، مما يدفع الباحثين للتساؤل المشروع عن هذا الصمت المطبق الذي لا يكسره سوى ابن أبي الدم الحموي[٥]، وأبي شامة[٦]، وابن خِلّكان[٧]، و ابن كثير[٨] حيث ذكروا ولادة تقي الدين في سنة

---

٢. العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق محمد الطعاني، دار حمادة للدراسات الجامعية، إربد، ٢٠١١م، ص٣٤٣؛ خريدة القصر وجريدة أهل العصر، (قسم الشام)، (٤ج)، تحقيق شكري فيصل، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٨م، ج١،ص٨٠-١١٢؛ سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الزمان، (٢٤ج)، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠١٣م، ج٢١، ص٣٩٢-٣٩٤؛ أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الروضتين في أخبار الدولتين، (٥ج)، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ج٤، ص٢٩٠؛ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٦م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (٨ج)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م، ج٣، ص٤٥٦-٤٥٨؛ ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد (٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، (٦ج)، تحقيق محمد الكاظم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ١٤١٦هـ، ج٥، ص٢٨٦؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (١٦ج)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠١٠م، ج١٢، ص٨٣٦-٨٣٧؛ سير أعلام النبلاء، (٢٤ج)، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م،ج٢١، ص٢٠٢-٢٠٣؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، (٢٩ج)، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٢٢، ص٢٩٨-٣٠١.

٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥٢؛ الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت٨٧٦هـ/١٤٧١م)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، د.ن، بغداد، ١٩٧٨م، ص٤٩.

٤. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج١-ج٣، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، ٩٥٣-١٩٦٠م، ج٤، ج٥، تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور، ١٩٧٢-١٩٧٧م، ج٢، ص٢٣٨؛ *ابن أيبك الدواداري*، أبو بكر بن عبد الله (ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م)، كنز الدرر وجامع الغرر، (٩ج) الجزء السابع المسمى الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٩١.

٥. ابن أبي الدم الحموي، إبراهيم بن عبد الله (ت٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، التاريخ المظفري، نشر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق سهيل زكار، ج٢١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥م،ص٢٣١.

٦. الروضتين، ج١، ص١٢٦، من غير أن يذكر مصدره.

٧. وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٧.

٨. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، (١٤ج)، تحقيق أحمد أبو ملحم

٥٣٤هـ/١١٣٩م لكن دون تبيان لمصدرهم في هذه المعلومة، فأغفل ابن أبي الدم وأبي شامة ذكر مصدرهما، بينما أشار ابن خلكان إلى ذلك بقوله:"رأيت بخطي في مسوداتي"[٩] مما يعني أنه لم يستطع في أثناء تبييضه لكتاب وفيات الأعيان من الوصول إلى مصدر معلوماته الذي اعتمده في تحديد تأريخ ولادة تقي الدين، فهل كان تقي الدين أسنَّ او اصغر من صلاح الدين المقطوع بولادته سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، وحاولت المصادر المعاصرة له، والمنحازة لصلاح الدين التعمية على هذه المسألة، خصوصاً بعد دخول تقي الدين في صراع على السلطة أكثر من مرة مع صلاح الدين، في محاولة منه لخلافته بالحكم أو تأسيس حكم خاص له بعيداً عن صلاح الدين احتجاجاً على حسم صلاح الدين لمسألة وراثته بالحكم لصالح أبنائه، أو تمرده على أوامره في أواخر حياته، ومحاولته تأسيس حكم خاص به في مناطق الشمال الشامي والجزيرة الفراتية وديار بكر حسب ما تحاول بعض المصادر والدراسات الحديثة تصويره، والذي سنناقشه فيما بعد، إنَّ كل تلك الأسئلة مشروعة نتيجة لسكوت المصادر عن ذكر تأريخ ولادة تقي الدين.

غير أنَّ الدلائل والإشارات الواردة عنه في المصادر المعاصرة له واللاحقة عليه تؤكد مسألة ولادته في سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م، أو قبلها، ولكن سنسلم بولادته في ٥٣٤هـ/١١٣٩م، لعدم وجود دليل قاطع على ولادته قبلها، فابن خلكان يؤكد أنه كان أكبر أبناء شاهنشاه المقتول شهيداً سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م[١٠]، ولم يكن تقي الدين إلاَّ الأكبر بين أبناء اثنين وبنت لشاهنشاه[١١]، مما يعني أنه ولد قبل سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، إضافة إلى وجود أبناء كبار له في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م حيث قتل ابنه أحمد ــ ولم يكن كبير أبنائه ــ في معركة الرملة[١٢]، وكان قطعاً فوق سن السادسة عشرة ليعتمد عليه أبوه تقي الدين في المعركة، ويأمره بصدِّ هجوم الفرنجة الصليبيين مرة بعد أخرى حتى استشهاده[١٣]، وهو ما يعني أنه مولود قبل سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م، فإذا كان ابنه الأكبر شاهنشاه بن تقي الدين أُغرِيَ بالمُلك من قبل بعض مستأمني الفرنجة الصليبيين، وغَرّر به حتى أخرجه من دمشق إلى مناطق الفرنجة الصليبيين حيث تّم أسرُه، مما يعني أنه وقت الحادثة كان فوق الثامنة عشرة من عمره، وقررت المصادر أنَّ هذه الحادثة تمت قبل معركة الرملة، مما يعني أنها تمت بين سنتي ٥٧٠-٥٧٢هـ/١١٧٥-١١٧٤م[١٤]، فيكون

وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج١١، ص٢٣٢، هذا ولم يشر ابن كثير لمصدره غير أنَّ الراجح أنه ينقل من أبي شامة أو ابن خلكان.

٩. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٧.

١٠. المصدر نفسه، ج٢، ص٤٥٢.

١١. المصدر نفسه، ج٢، ص٤٥٢-٤٥٣؛

١٢. العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، البرق الشامي، ج٣ تحقيق مصطفى الحياري، ج٥، تحقيق فالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ١٩٨٧م، ج٣، ص٣٩؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤٦٢-٤٦٣. ووقعة الرملة هزم فيها السلطان صلاح الدين، وسيأتي تفصيل عنها فيما يلي.

١٣. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص٣٩؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤٦٣.

١٤. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص٣٩؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤٦٣، وقارن الأمر بولادة الملك الأفضل بن صلاح الدين في سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م، وهو أكبر أبناء صلاح: العماد الأصفهاني، البرق الشامي،

مولده في حدود سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م، وهو الأمر الذي يعزز كثيراً تحقيق ولادته في سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م أو حتى قبلها.

أسرته ونشأته وثقافته:

يرجح أن تقي الدين عمر قد ولد سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م في أسرة أيوبية عسكرية، وكان الده أكبر أبناء نجم الدين أيوب الذي تولى في تلك السنة مدينة بعلبك نيابة عن عماد الدين زنكي (قتل ٥٤١هـ/١١٤٦م) مؤسس دولة الزنكيين في الموصل وحلب[١٥]، وكان تقي الدين أول أحفاد نجم الدين، وخامس رجال الأسرة الأيوبية سِنّاً، حيث لم يكبره سوى جده نجم الدين، ووالده شاهنشاه، وعميه تورانشاه وصلاح الدين يوسف، الذي لم يكن يكبره سِنّاً سوى بسنتين، إذا سلّمنا أن تقي الدين مولود في سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م حيث إنَّ صلاح الدين ولد سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م[١٦]، لهذا نرجح نشأته وعمه صلاح الدين معاً في تلك الأسرة تحت كنف نجم الدين وشاهنشاه، كونه الأخ الوحيد من الأب والأم لصلاح الدين.

ولم تشر المصادر إلى تربيته ونشأته، غير أننا نستطيع أن نتلمس ملامح تربيته مما امتاز به لاحقاً من مهارات، فالواضح أنه تلقى تعليماً جيداً في اللغة والأدب، والقرآن، والحديث النبوي، انعكس ــ فيما بعد ــ على ظهوره بصورة الأديب والشاعر[١٧]، والمهتم بالفقه الشافعي، والحديث النبوي[١٨]، ويظهر أيضاً ممن جعلهم من العلماء في حاشيته[١٩].

ومن المؤكد أنه تلقى تدريباً عسكرياً على يد والده بدايةً، لأن والده ما لبث أن قُتل، وتقي الدين في حدود التاسعة من عمره، فاهتم به جده نجم الدين، وشقيق جده أسد الدين شيركوه (ت٥٦٤هـ/١١٦٨م)، وهذا أمرٌ طبيعي يظهر من إنجازاته العسكرية اللاحقة، ولأنه مولود لأسرة من العسكريين التابعين لإدارة الزنكيين، وتعتمد في مستقبلها ومكانتها واستمرارها على كفاءة أفرادها العسكرية، لذلك اهتموا بهذا الجانب كثيراً، وربما يكون تلقى تدريباً إدارياً على يد نجم الدين أيوب. ورغم أنَّ المصادر لا تشير إلى أي صلة أو تدريب مباشر له على يد شقيق جده أسد الدين شيركوه، لاتصاله به، ومرافقته له، لأنه ظهر بعد نضوجه بشخصية قريبة جداً من

ج٣،ص٧٦.

١٥. ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، (١٣ج)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، ج١١، ص١١٨، أبو شامة، الروضتين، ج١، ص١٢٩.

١٦. أبو شامة، الروضتين، ج١، ص١٢٦.

١٧. انظر شعره وأدبه؛ العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج١، ص٨١-٨٢ وانظر: الدواداري، كنز الدرر، ج٦، ص٩١؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن (٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، النجوم الزاهر في ملوك مصر والقاهر، (١٦ج)، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٦، ص١٠٣.

١٨. انظر روايته للحديث وهو في مصر وبناءه مدارس للشافعية: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٢، ص٨٣٧.

١٩. العماد الأصفهاني، خريدة العصر، ج١، ص٨١.

شخصية أسد الدين شيركوه، بل ربما كان الوحيد من أفراد الأسرة الأيوبية المتمثل لتلك الشخصية، وخصوصاً في جانبها العسكري، وجانب الشّدَّةِ والجِدَّة الذي ظهر به، لذلك نرجح تدريبه من قِبل أسد الدين واتصاله به، وربما خدمته في الفرق العسكرية التابعة له.

ولم تورد المصادر أي معلومات عن والدته، ولا حتى اسمها، وذكرت معلومات مختصرة عن والده شاهنشاه، تتعلق بأنه أكبر أبناء نجم الدين أيوب، وأنه الشقيق الوحيد من الأب والأم لصلاح الدين، وأنه استشهد في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، واختلفوا في مكان استشهاده، فقطع ابن خلكان باستشهاده في دمشق في أثناء دفاعه عنها ضد الحملة الصليبية الثانية[٢٠]، في حين أشار ابن أبي طيئ (ت٦٣١هـ/١٢٣٣م)[٢١] إلى استشهاده في وقعة يَغْرا قرب أفامية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م التي هزم فيها نور الدين (ت٥٦٩ه/١١٧٣م) أمام الفرنجة الصليبيين، وكان شاهنشاه في قوات عمه أسد الدين[٢٢].

وذكرت المصادر وجود شقيق وشقيقة لتقي الدين، هما الملك عز الدين فَرُخْشاه نائب صلاح الدين على دمشق حتى وفاته سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، وأحد أبرز قادته العسكريين، والمشاركين بفاعلية في الكثير من معاركه، والسيدة عذرا صاحبة المدرسة العذراوية بدمشق والمتوفاة سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م[٢٣].

ولا تشير المصادر إلى أي دور لتقي الدين قبل سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، بل ولا تورد له أيُّ ذكر، غير أنه يمكن الترجيح أنه كان يعمل في فرق عم والده أسد الدين شيركوه أبرز قادة نور الدين العسكريين، ويقوي هذا الترجيح أنَّ ابن أبي طيئ يذكر استشهاد والده شاهنشاه مع أسد الدين في معركة يَغْرا، مما يعني أن شاهنشاه انتقل من دمشق حيث والده نجم الدين التابع آنذاك لدولة البوريين[٢٤]، إلى حمص حيث إقطاع عمه أسد الدين التابع لدولة نور الدين، فربما استمرت أسرته هناك حيث تدرب تقي الدين وشقيقه عز الدين فرخشاه، ثم لما كبرا انضما إلى فرق عم والدهما العسكرية. وخصوصاً أنَّ تقي الدين وعز الدين أصبحا أكبر أفراد الأسرة بعد عميهما تورانشاه وصلاح الدين.

إضافة إلى أن تقي الدين ظهر في مصر بعد استدعائه إليها مع أعمامه لمساندة صلاح الدين، الذي خلف عمه أسد الدين في وزارة الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (ت٥٦٧هـ/١١٧١م)،

---

٢٠. وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥٢.

٢١. انظر عنه: لؤي بواعنه، يحي بن أبي طيئ مؤرخاً، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، عمادة البحث العلمي ، الجامعة الأردنية، المجلد٣، العدد٢، ٢٠٠٩م، ص٣٩-٦٣.

٢٢. أبو شامة، الروضتين، ج١، ص١٩٧.

٢٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥٢-٤٥٣؛ أبو شامة، الروضتين، ج١، ص١٩٨.

٢٤. الدولة البورية أو دولة آل طغتكين: دولة أتابكة حكمت دمشق من سنة ٤٩٧-٥٤٩هـ/١١٠٣-١١٤٦م، انظر عنها: ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)، تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣م، ص٢٣٥-٥٠٥؛ الأثير، الكامل، ج١٠، ص٣٧٦.

ومعه مجموعة عسكرية من المماليك المدربين جيداً والتابعين له[٢٥]، مما يعني أنه قام ببناء قوة عسكرية ذات وزن قبل سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، ويؤكد أنه لعب دوراً عسكرياً في صفوف أسد الدين شيركوه في بلاد الشام في أثناء خدمته بها تحت قيادة نور الدين زنكي.

الدور العسكري لتقي الدين عمر في الدولة الأيوبية:

أدى تقي الدين عمر دوراً عسكرياً بارزاً في عهد صلاح الدين منذ وزارته للخليفة الفاطمي العاضد، ثم نيابته عن نور الدين في مصر بعد إلغاء الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، ثم توليه السلطنة بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م وحتى وفاة تقي الدين سنة ٥٨٧هـ/١١٩١[٢٦]، حيث كان القائد الميداني الأبرز لصلاح الدين في جميع معاركه التي شاركه فيها، بل كان القائد العسكري الذي يدخره صلاح الدين للمهام الصعبة.

وأكدت المصادر العربية الإسلامية والفرنجية على أهميته العسكرية الكبرى في جيوش صلاح الدين، والتي بلغت حدَّ قيام صلاح الدين بفرض حالة من الكتمان الشديد على خبر وفاته في سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م خشية استغلال الفرنجة الصليبيين لهذا الخبر في الهجوم على قوات صلاح الدين، وخوفاً من انهيار معنويات جيشه المواجه للفرنجة[٢٧].

ووصف صلاح الدين إمكانيات تقي الدين العسكرية في كتاب توليته نيابة مصر في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، الذي أنشأه القاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ/١٢٠٠م) بقوله:"ولما كان ولدنا الأجلّ الملك المُظفر تقي الدين ــ أدام الله علوّه وضاعف رفعته وسموّه ــ... والبسالة التي فرّق جموع الأعداء بأسها الشديد، وثلم حدَّ الكفر حدُّها الحديد ... وهدَّ ركن المنكر ركن عُرفها المشيد"[٢٨]، ثم قال عنه في أثناء مرضه في حَرَّان سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م:"إن أدركــني المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلفت أبا بكر وعمر وعثمان وعليا، وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد مليا، يعني بأبي بكر الملك العادل أخاه، وبعمر تقي الدين أبن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملك العزيز

٢٥. العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص٤٠٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٨٩؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٦٧؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، (٤ج، ١٢قسم)، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م، ج١، ق١، ص٤٨، ٦٥؛ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، (٦ج)، تحقيق أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٢م، ج٣، ص٧٥٤، ٧٥٥؛ هاملتون جب، صلاح الدين الأيوبي، دراسات في التاريخ الإسلامي، ترجمة وتحرير يوسف ايبش، بيسان، بيروت، ١٩٧٣م، ص١٥٦.

٢٦. انظر حول سيرة صلاح الدين ومناصبه التي تولاها قبل السلطنة: مصطفى الحياري، صلاح الدين القائد وعصره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ص١١٧-١٨٢.

٢٧. ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق أحمد ايبش، دار الأوائل للنشر، دمشق، ٢٠٠٣م، ص٤٣١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٧.

٢٨. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص١٥٧؛ الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر (ت٦١٧هـ/١٢٢٠م)، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٥٦.

والملك الأفضل"[٢٩].

أما معاصروه من المؤرخين، فوصفه العماد الأصفهاني بقوله:"كنا نتحدث بعد ذلك بشدته وقساوته وحماسته، وجوده حتى بمهجة نفسه"[٣٠]، في حين قال ابن شدّاد في حقه:"وكان تقي الدين ــ رحمة الله عليه ــ شديد البأس، مقداماً على الأمور، ليس في عينه من أحد شيء"[٣١]، ووصفه المؤرخ المجهول المرافق للملك ريتشارد (Richard) (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) ملك إنكلترا في الحملة الفرنجية الصليبية الثالثة:"وكان تقي الدين هذا رجلاً نسيج وحده حزماً وعزماً، مطبوعاً على القسوة التي لا يمكن لأحد أن ينزعها من نفسه، وكانت عنده فظاظة لا تعرف الإنسانية"[٣٢]. وكذلك وصفه أمبرويز (Ambroise)، وهو من معاصري الحملة الفرنجية الصليبية الثالثة بقوله: "وكان تقي الدين على الجانب الآخر، المحامي عن ديار المسلمين، حرس ساحل البحر والشاطئ، وعلى حشدنا شن حرباً مستمرة، وكان دوماً مستنفراً و جاهزاً للقتال وللهجوم علينا وأرغامنا على التراجع"[٣٣] ووصفه المجهول صاحب تاريخ البطاركة بأنه "مقدم عسكر الملك"صلاح الدين ومشيره الأجل تقي الدين عمر بن شاهنشاه، وكان ذو رأي صائب، وتدبير جيد، وكان له على الأجناد هيبة"[٣٤].

وترك تقي الدين الانطباع نفسه عند غير معاصريه من المؤرخين، فقال عنه سبط ابن الجوزي:"وكان تقي الدين شجاعاً مِقداماً"[٣٥]، وتابعه ابن خلكان بقوله:"كان شجاعاً، مقداماً، منصوراً في الحروب، مؤيداً في الوقائع، ومواقفه مشهورة مع الفرنج، وكانت له آثار في المصافات دلت عليها التواريخ"[٣٦] في حين أشاد ابن واصل بجانبه العسكري، فقال:"وكان السلطان [صلاح الدين] يحب الملك المظفر تقي الدين أكثر من محبته لسائر أهله، لماخُصَّ الملك تقي الدين به من الشهامة، والنجابة، والإقدام العظيم الذي لم يكن لأحد مثله من بني أيوب"[٣٧]، ثم قال:"كان الملك المظفر ملكاً، شجاعاً، جواداً، شديد البأس، عظيم الهمّة، ركناً عظيماً من أركان البيت الأيوبي"[٣٨]، ووصفه المقريزي بقوله:" وكان شرارة القوم"[٣٩].

---

٢٩. البنداري، الفتح بن علي (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥)، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٢٦٩.
٣٠. البرق الشامي، ج٣.
٣١. النوادر السلطانية، ص٢٥٤. وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣٤٢.
٣٢. مجهول (القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)، الحرب الصليبية الثالثة (ريتشارد وصلاح الدين)، (٢ج)، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ج١، ص١٢٤.
٣٣. أمبرويز (ق٦هـ/ق١٢م)، صليبية ريتشارد قلب الأسد، ترجمة سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، دمشق، ١٩٩٨م (٥٤ج)، ج٣٢، ص١٦٨.
٣٤. مجهول، تاريخ البطاركة، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٦، مج٢، ج٣، ص١٤٥٠.
٣٥. مرآة الزمان، ج٢١، ص٣٩٢-٣٩٣.
٣٦. وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٦.
٣٧. مفرج الكروب، ج٢، ص٢٣٨، وانظر: الدواداري، كنز الدرر، ج٦، ص٩١.
٣٨. مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٦؛ وانظر: أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمد بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن

وكذلك ترك تقي الدين لدى الباحثين المحدثين انطباعاً ينسجم مع ما أوردته المصادر الأولية عند أهم مَنْ كتب عن صلاح الدين، فقال عنه هاملتون جب:"تقي الدين عمر، وهو أشد أعضاء الأسرة ولعاً بالحرب وتَهوّراً"(٤٠)، وقال عنه مصطفى الحياري:"كان تقي الدين من أبرز رجال دولته [صلاح الدين] وقادة عسكره ومشورته"(٤١).

إن تلك الأوصاف كلّها التي وصف بها تقي الدين لتؤشر على أنَّه كان الأكثر بروزاً من الناحية العسكرية بين أفراد الأسرة الأيوبية، وبين القادة العسكريين في جيش صلاح الدين الأيوبي، وأنه كان الساعد القوي لعمه صلاح الدين في كل معاركه، وعلى جميع الجبهات، ورسخ هذا الأمر كونه أصبح بعد سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م كبير الأسرة الأيوبية سنّاً بعد عمه صلاح الدين، وهو ما يؤكده المشجر الآتي(٤٢):

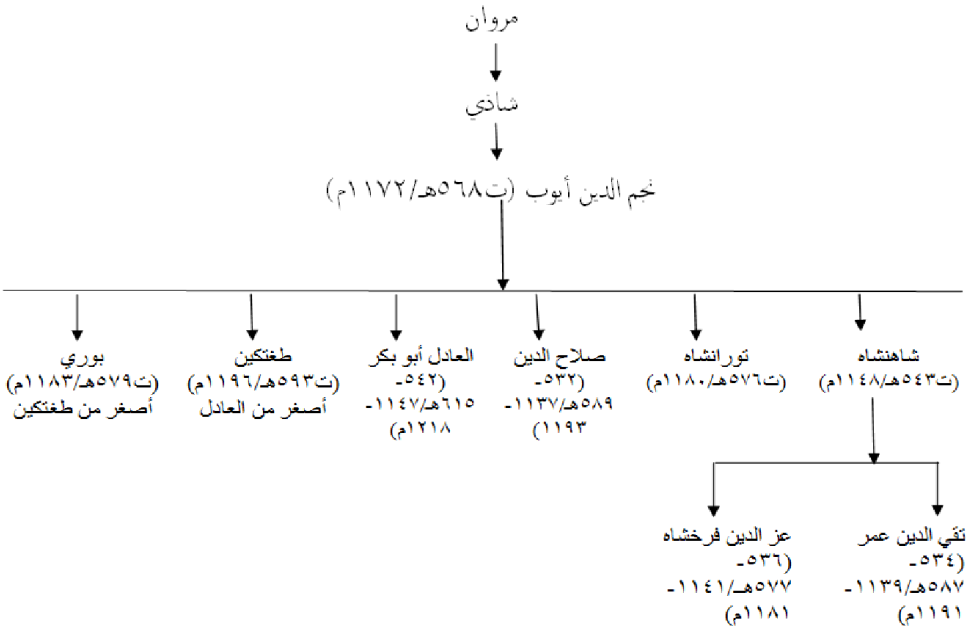

أيوب (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، (٢ج)، علق عليه ووضع حواشيه محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص١٦٦؛ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج١، تحقيق حسن الشماع، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٠م، ص٤٧.

٣٩. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المقفى الكبير، (٨ج)، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٨، (زيادات ملحقة في الفهارس عن نسخة مخطوطة جديدة)، ص٧٥٤.

٤٠. صلاح الدين الأيوبي، ص١٢٨.

٤١. صلاح الدين، ص٢٦٥.

٤٢. هذا المشجر مأخوذ من مجمل المصادر الواردة في الحواشي السابقة، وأهمل في هذا المشجر أبناء صلاح الدين وبقية إخوته لصغر سنهم مقارنة ببقية أفراد الأسرة، حيث إن أكبرهم مولود بعد سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م، لذلك كانوا في سنة ٥٧٦هـ/١١٨١م، أطفالاً، بل إن كثيرا منهم لم يكن مولوداً بعد.

أ- الدور العسكري لتقي الدين قبل سلطنة صلاح الدين الأيوبي ٥٦٤-٥٦٩هـ/١١٦٨-١١٧٣م

شغل صلاح الدين منذ سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م منصب الوزير للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، والنائب لنور الدين في مصر خلفاً لعمه أسد الدين، وتولى صلاح الدين ذلك المنصب وأمامه خطة موضوعة من نور الدين تقتضي ضرورة إلغاء الخلافة الفاطمية، وتوحيد الأمة الإسلامية تحت راية الخلافة العباسية، وضم مصر لدولة نور الدين بشكل كامل، ولأجل تنفيذ هذه الخطة، واستناداً إلى المعوقات التي كانت تواجه صلاح الدين، سواء من ناحية الغزو الفرنجي الصليبي لمصر، أو من ناحية بقايا الجيش الفاطمي والإدارة الفاطمية المعارضة لصلاح الدين، و الاضطرابات الداخلية في مصر[٤٣]، طلب صلاح الدين من نور الدين تدعيم قواته باستقدام أهله وما يتبعهم من جنود ومماليك، فأرسل نور الدين أخوة صلاح الدين وابني أخيه شاهنشاه مع قواتهم إليه، وكانت تلك المجموعة تحت قيادة الأكبر سناً، والأكثر خبرة عسكرية، وهم: شقيقه تورانشاه، وابني شقيقه شاهنشاه، تقي الدين عمر، وعز الدين فرخشاه[٤٤]، ثم ما لبث صلاح الدين أن طلب إرسال والده نجم الدين وبقية أفراد أسرته، فأرسلهم إليه نور الدين في سنة٥٦٥هـ/١١٦٩م[٤٥].

برز دور تقي الدين العسكري في هذه المدة باعتماد صلاح الدين عليه بُعَيْدَ وصوله إلى مصر- في الدفاع عن مدينة دمياط التي حاصرها تحالف فرنجي صليبي في الأول من صفر سنة ٥٦٥هـ/٢٥ تشرين الأول ١١٦٩م، وكانت حاميتها صغيرة، فبادر صلاح الدين بإرسال تقي الدين إليها على رأس قواته التي رافقته من الشام للدفاع عن المدينة وحمايتها، ثم أرسل بعده خاله شهاب الدين الحارمي (ت٥٧٤هـ/١١٧٨م) أحد قادة جيش نور الدين الكبار، وقد أبليا بلاءً حسناً في حفظ المدينة، واستغلا عدم قيام القوات الفرنجية بالهجوم على المدينة، وتأخير هجومهم أكثر من ثلاثة أيام، للقيام بتحصين المدينة[٤٦]، ثم صدّ كل هجوم عليها، وقد وصفهم وليم الصوري بقوله:"ازداد عددهم كثيراً بتعزيزات من المقاتلين الشجعان، وكانت النتيجة أنهم استطاعوا أن

---

٤٣. حول تلك الأخطار، وخطط نور الدين وصلاح الدين لمصر انظر: الحياري، صلاح الدين، ص١٢٣-١٣٦؛ جب، صلاح الدين، ص١٢٠-١٢٢.

٤٤. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٤٤؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٣٢؛ ابن الفرات، تاريخ، ج٤، ق١، ص٦٧،٦٩، ٨١. ويناقض ذلك ما ذكره متعب حسين القثامي في كتابه مملكة حماة في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٣م، ص٣٧ بأن جعل تقي الدين دخل إلى مصر مع أسد الدين شيركوه وقاتل في صفوف حملته على مصر من غير تبيان مصادره للمعلومة.

٤٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٥٢؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٥٢؛ ابن الفرات، تاريخ، ج٤، ق١، ص٨٧.

٤٦. وليم الصوري (ت٥٨١هـ/١١٨٥م)، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، (٢ج)، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر؛ بيروت، ١٩٩٠م، ج٢، ص٩٣٨-٩٤٦؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص٤٥؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٣٩-١٤٤؛ ابن أبي الهيجاء (ت ق٧هـ/ق١٣م)، تاريخ ابن أبي الهيجاء، مخطوطة دار الكتب الوطنية، تونس، رقم (١٣٨٥٣)، ورقة ١٦٦أ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٧٩-١٨٢؛ ابن الفرات، تاريخ، مج٤، ج١، ص٨٣؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٦، ص٤١؛ La monte, Taki Eddin p. 150

يقاوموا هجماتنا ليس فقط ضمن المدينة نفسها، بل حتى في ميدان القتال خارجها"[٤٧]، وقد دفع هذا الصمود، وإمدادات صلاح الدين المتتالية من القاهرة للمدينة، والنجدات العسكرية التي وصلت من الشام إلى مصر، وقيام نور الدين بحملات عسكرية على أراضي الفرنجة في بلاد الشام، إلى قيام التحالف الفرنجي بفك الحصار عن دمياط[٤٨]. وكان هذا العمل أول جهد عسكري ترصده المصادر لتقي الدين، ولولا ثقة صلاح الدين بخبرة تقي الدين العسكرية وشجاعته، وأنه مجرّب قبل ذلك، وقادر على تحمل هذه المسؤولية، لما اعتمد عليه في مثل هذا الموقف.

ثم أوكل صلاح الدين إليه في السنة نفسها إخماد تمرد بعض قبائل العرب في الأعمال الغربية من مصر، فهاجمهم تقي الدين، ودمر قواهم العسكرية، وسلب أموالهم ومواشيهم، وسبي نسائهم وأولادهم، وعاد إلى القاهرة بعد إخماد تمردهم[٤٩].

ثم كلف في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م بمهمة أساسية في المشروع الاستراتيجي لصلاح الدين الهادف إلى تقوية مصر عسكرياً واقتصادياً، لضمان مواجهة فاعلة مع الفرنجة الصليبيين، حيث أوكل إليه مهمة من مهمتين قررتا في الاجتماع الذي عقده صلاح الدين في الإسكندرية، وضم إلى جانبه والده نجم الدين، وخاله شهاب الدين الحارمي، وشقيقه تورانشاه، وابن شقيقه تقي الدين، لتحديد استراتيجيات المواجهة مع الصليبيين، وتعزيز إيرادات الدولة من خلال السيطرة على النوبة التي أوكلت إلى تورانشاه، والسيطرة على الشمال الإفريقي، وأوكلت إلى تقي الدين، وبناءً عليه قُرر لتقي الدين وجنوده مخصصات مالية على منطقة البحيرة بمصر، وقرر له أن يتخذ من برقة قاعدة لعملياته[٥٠]. والمصادر لا تشير إلى ذهابه إلى برقة، لكن يبدو أنه ذهب إليها، وأدار منها عمليات مملوكه قراقوش التقوي، كما توحي بذلك نصوص المقريزي[٥١]، ويرجح أنه أعيد إلى القاهرة في سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م، وترك مملوكه قراقوش لقيادة العمليات في الشمال الإفريقي بالتنسيق معه، وذلك لإتاحة الفرصة لتورانشاه لتنفيذ مشروع النوبة في سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م[٥٢]، ثم بعد ذلك مشروع السيطرة على اليمن الذي بدأ سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م[٥٣]، وحتى لا تخلو مصر من أقوى وأبرز قائدين يتبعهما أبرز قوتين فيها، وذلك لمواجهة مقاومة بقايا الإدارة الفاطمية على صلاح الدين وتنسيقها مع الفرنجة الصليبيين، ثم لاضطراب العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين،

٤٧. الأعمال المنجزة، ج٢، ص٩٤٣.

٤٨. البنداري، سنا البرق الشامي، ص٤٥؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٣٩-١٤٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٨١-١٨٢.

٤٩. مجهول، تاريخ البطاركة،مج٢، ج٣، ص١٤٥٥.

٥٠. أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص١٣١-١٣٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٤٨؛ المواعظ والاعتبار، مج٣، ص٧٥٤.

٥١. المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٤٨؛ المواعظ والاعتبار، مج٣، ص٧٥٤.

٥٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٨٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٤٥.

٥٣. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٩٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٧١.

وخشية صلاح الدين من قيام نور الدين بمهاجمة مصر(٥٤). وهو الأمر الذي يؤكده حضوره للمجلس التشاوري لصلاح الدين حول سبل التعامل مع نور الدين، والذي ضم والده وخاله شهاب الدين محمود الحارمي وتقي الدين وكبار قادة الجيش في مصر، وأبدى فيه تقي الدين رأيه بضرورة قتال نور الدين، والذي عدّه نجم الدين رأياً مُتهوراً، ورفع الاجتماع بعد إصراره على أن مصر تابعة لنور الدين، وإذا أرادها فسيقوم بتسليمها له، ثم بعد انتهاء الاجتماع وانفراده بصلاح الدين لامَهُ على مناقشة الأمر باجتماع عام، لأن كثيراً من القادة جواسيس لنور الدين، وأقر بصواب رأي تقي الدين، ولكنه اعترض على إعلانه أمام القادة(٥٥).

ويجب التأكيد على أنَّ المصادر تصمتُ عن أي دور له بعد ذلك حتى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، ولكن هناك أدواراً يرجح أن أداها ولم ترصدها المصادر، ولعل أهمها الدور الذي ادى الى في إلغاء الخلافة الفاطمية وتثبيت الدعوة للعباسيين بمصر، وقمع أي تحركات لمؤيدي الفاطميين ضد صلاح الدين بعدها، ويدل على هذه المسألة الهجوم الواسع الذي تعرض له تقي الدين من غير بقية أفراد الأسرة الأيوبية، من قبل الشاعر والفقيه عمارة اليمني (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م) الموالي للفاطميين، حيث خصه بمقطوعة هجائية لاذعة، فقال(٥٦): [السريع]

عَظّمتُما الأمر وفخمتُماه ... ما ابن شاهنشاه إلاَّ ابنُ شاهُ
فمن تكون الشاةُ أُمّاً لهُ ... فما يكون التيس إلاَّ أباهُ
الشاة لا ينكحُها ضيغمٌ ... إنْ شئتمُ أخبرُتكم مَنْ أباهُ

ثم قال مقطوعة أخرى يبكي فيها على منازل العز بالقاهرة، لأن تقي الدين سكنها بعد الفاطميين(٥٧)، رغم أنه دخل على نجم الدين أيوب، وقد سكن بمنظرة اللؤلؤ في القاهرة بعد الفاطميين(٥٨)، فلم يبكِها، مما يدل على دور مهم لعبَهُ تقي الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية، والقضاء على تمرد المؤيدين لها، لم ترصده المصادر.

ب- الدور العسكري لتقي الدين في عهد سلطنة صلاح الدين وحتى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م

كان الدور الأول لتقي الدين في هذه المرحلة، هو قيادة قوات مصر في أثناء توجه صلاح الدين إلى بلاد الشام للسيطرة عليها بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، وذلك لضمان

٥٤. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٩٨، ٤٠٢؛ أبو شامة، الروضتين، ج، ص٢٨٢، ٣١٠.
٥٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١،ص٣٧٢-٣٧٣؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٢٧-٢٢٩ ابن أبي الهيجاء، تاريخ، ورقة ١٦٧أ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢٢٢؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص١٣٠، ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٠؛ ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر (ت بعد٩٢٦هـ/١٥٢٠م)، صدق الأخبار، (٢مج)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٣م، ج١، ص١٣١؛ La monte, Taki Eddin, p.150-151
٥٦. المقريزي، المقفى الكبير، ج٨، ص٧٥٥.
٥٧. المصدر نفسه، ج٨، ص٧٥٤.
٥٨. المصدر نفسه، ج٨، ص٧٥٣.

استقرار الأمور فيها في مدة انشغال صلاح الدين بالسيطرة على الشام، غير أنَّ صلاح الدين سرعان ما استدعاه في سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م مع شقيقه عز الدين، وهما كبيرا البيت الأيوبي آنذاك بسبب غياب تورانشاه في اليمن، إلى بلاد الشام لدعمه في مواجهة الحلف الزنكي بقيادة عز الدين مسعود (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م) الذي وصلت قواته إلى حلب، و بدأت تستعد للهجوم على صلاح الدين بالتجمع في موقع قرون حماة حيث عسكر صلاح الدين في مواجهتها، ثم بدأ، كما ذكر ابن أبي طيئ، بسلسلة مراسلات معهم بهدف تأخير المواجهة حتى وصول تقي الدين ومن معه، ولكن بعد طول انتظار اكتشف التحالف الزنكي ضعف جيش صلاح الدين، فشن هجوما واسعا عليه، كاد أن يؤدي إلى هزيمته لولا وصول تقي الدين وشقيقه عز الدين اللذَيْن دخلا في المعركة فور وصولهما، وأدى هجومهما إلى هزيمة التحالف الزنكي، وانتصار صلاح الدين في معركة قرون حماة، والتي نتج عنها ترسيخ الاعتراف بصلاح الدين سلطاناً على مصر وبلاد الشام ما خلا حلب[٥٩]، وقد مدحه العماد الأصفهاني على دوره في هذه المعركة اعترافاً منه بالدور الحاسم الذي لعبه فيها، حيث قال[٦٠]: [الكامل]

أوَما اتَّقيتـــــــــم حين رُعتُم سِرْبَهُ فيـــــــــــــه تقي الدِّين ذاكَ الأَرْوَعا
عمر بن شاهِنْشاه مَنْ هو عامرٌ أركانَ مُلْكِ الشام حين تَضَعْضَعا

وشارك تقي الدين بعدها في معركة تلّ السلطان في سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م ضد الزنكيين بزعامة أتابك الموصل سيف الدين غازي (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م) والتي انتهت أيضاً بانتصار حاسم لصلاح الدين[٦١]، ولذلك أوكل صلاح الدين لتقي الدين نيابة دمشق وقيادة جيوشه فيها لاضطراره للانشغال في شمال الشام[٦٢]، غير أن صلاح الدين سرعان ما عاد إلى دمشق سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م موكلاً نيابة دمشق هذه المرة لشقيقه تورانشاه، الذي قدم من اليمن إلى دمشق، وأصبح كبير الأسرة الأيوبية، و أعاد تقي الدين معه إلى مصر[٦٣]، ولما قرر صلاح الدين في بداية سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م غزو الأراضي الفرنجية من مصر، كان تقي الدين من القادة العسكريين الذين رافقوه، وحققت هذه الحملة نجاحات في تحركاتها الأولية، إلاَّ أنَّ توزع قوات الحملة في الغارات على الأرياف، جعل بقية قوات صلاح الدين هدفاً سهلاً لقوات مملكة القدس

٥٩. أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٣٨٢-٣٨٤؛ وانظر ما يعضد رواية ابن أبي طيء في ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١١٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٢١؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص٨٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣٢؛ ج١١.

٦٠. العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، الديوان، جمع وتحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٨٣م، ص٢٨٨؛ وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢،ص٣٣.

٦١. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٢٧؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص٩٤؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١١٨؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٢٣٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٣٩٤-٤٠١؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٦، ص٦٠.

٦٢. البنداري، سنا البرق الشامي، ص٩٣؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٤٥٧.

٦٣. أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤٢٥؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٦، ص٦٢.

الفرنجية، فهاجموا قواته بغتة أثناء تنقلها عبر نهر قرب تل الصافية القريب من الرملة، مما أدى إلى فرار قوات صلاح الدين، وتعرضه شخصياً لخطر القتل أو الأسر، لولا تدخل تقي الدين مع قواته التي صمدت أمام الهجوم الفرنجي حتى تمكن صلاح الدين من الانسحاب من أرض المعركة باتجاه صحراء سيناء، وتعرض تقي الدين بعدها للهزيمة بعد صمود طويل لقلة قواته الصامدة معه، وفقد في المعركة ابنه أحمد(٦٤)، وهو الأمر الذي أكده العماد الأصفهاني حيث قال:"فلو أن لتقي الدين ردءاً لأردى القوم"(٦٥)، وخلَّد العماد الأصفهاني هذا الدور لتقي الدين في معركة الرملة بقصيدة مدحه فيها، منها(٦٦): [الوافر]

ويوم الرَّملة المرهـــــــــوب بأساً ... تركتَ الشِّركَ منزعجِ القطينِ
وكنتَ لعسكرِ الإسلام كَهْفاً ... أوى منه إلى حِصْنٍ حَصيْنِ
قد عَرفَ الفرنج سُطـــــــــاكَ لما ... رأوا آثارهـــــــــــــا عينَ اليقينِ
وأنت ثبتَّ دون الدِّين تحمي ... حِماهُ أَوَانَ ولـــــــــــى كلُّ دونِ

بعد هذه الهزيمة لم يستطع صلاح الدين البقاء في القاهرة لفترة طويلة، حيث استغلّ الفرنج انتصار الرملة لمهاجمة حماة ومحاولة السيطرة عليها، ومهاجمة نواحي دمشق، مُستغلين انتصار الرملة، ومرض شهاب الدين الحارمي نائب حماة، وعدم جدية تورانشاه نائب دمشق في الدفاع عنها، وتفرّغه لمجالس اللهو في إطار احتجاجه على تفرّد صلاح الدين بالسلطة دونه، وهو أكبر أفراد الأسرة، كل هذه الأمور دفعت صلاح الدين إلى مغادرة مصر إلى بلاد الشام، يرافقه تقي الدين وعز الدين فرخشاه بهدف رد الغارات الفرنجية عن دمشق وحماة(٦٧)، فلما نجح في مهمته، قام بإعادة ترتيب القيادات العسكرية في بلاد الشام سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م، فنقل تورانشاه لِفَشَلِهِ إلى الإسكندرية البعيدة عن المعارك ليخلد للهدوء، وسلم دمشق لعز الدين فرخشاه، وسلّم حماة لتقي الدين ليكون مسؤولاً عن كل الجبهة الشمالية والوسطى من بلاد الشام المواجهة لإمارتي أنطاكيا وطرابلس الفرنجيتين الطامحتين بالتوسع على حساب المسلمين، وفي مواجهة الزنكيين

٦٤. وليم الصوري، الأعمال المنجزة، ج٢، ص١٠٠٢-١٠٠٤؛ العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص٣٦-٤٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٤٢، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٢١ ؛ أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص٤٦٢-٤٦٤؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج، ص٦٠؛ ابن سباط، صدق الأخبار، ج١، ص١٢٩.

٦٥. البرق الشامي، ج٣، ص٤٠.

٦٦. العماد الأصفهاني، الديوان، ص٤٢٩، أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤٦٧ ويجب الإشارة هنا إلى أن هذه الأبيات الأخيرة غير موجودة في العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص٤٦-٤٣٨؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص١٣٤.

٦٧. وليم الصوري، الأعمال المنجزة، ج٢، ص٩٨٦؛ العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص٥٢-٥٦، ٧٢-٧٤؛ البستان الجامع، ص٤١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٤٤، ٤٥٠، ٤٥٢؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٢٤٨-٢٤٩؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص١٥.

المتمركزين في حلب والموصل[٦٨]، وهو ما يعني أن صلاح الدين إدراكاً منه أن تقي الدين قائده الأكفأ، والأقوى، والأكثر خبرة، مما جعله يسلمه أخطر الجبهات على الدولة الأيوبية، وكانت هذه المسؤولية تعني نقل تقي الدين نهائياً من مصر إلى بلاد الشام.

بدأ صلاح الدين بعد هذه الترتيبات بتنفيذ خطط هجومية محدودة لكنها فاعلة ضد مناطق الفرنجة وحصونهم، لذلك توجه في سنة ٥٧٥هـ/١١٨٣م للإغارة على بانياس[٦٩] ــ وأوعز إلى تقي الدين القيام بصد هجوم سلطان سلاجقة الروم قلج أرسلان الثاني (ت٥٨٨هـ/١١٩٢م) على حصن رَعْبان[٧٠] التابع لصلاح الدين، فتمكن تقي الدين مع قوته المكونة من ألف مقاتل من هزيمة جيش قلج أرسلان المكون من عشرين ألفاً، بسبب هجومه الليلي المفاجئ على تلك القوات، ونجح في فك الحصار عن الحصن، ثم عاد سريعاً إلى قاعدته حماة ليكون جاهزاً لمساندة صلاح الدين[٧١]. وكان هذا النصر مهماً من الناحية الإعلامية لصلاح الدين، حيث أجبر كل القوى الإسلامية المحيطة بدولته إلى خطب ودّه، وإلغاء أي مشروعات لديهم لمواجهة صلاح الدين، وقد افتخر تقي الدين كثيراً بهذا النصر أمام صلاح الدين[٧٢]، وأفاد صلاح الدين من هذا النصر أمام القوى الإسلامية المحيطة به، وبخاصته الخلافة العباسية، وذكره في رسائله إلى حُكام الموصل مبالغاً في عدد جيش قلج أرسلان، فقال:"وكَسَرَ تقي الدين بإذن الله ثلاثين ألفاً من عسكر المذكور بألف"[٧٣].

وفي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وصلت إلى تقي الدين في أثناء إقامته في حماة رسُل صلاح الدين تطلب رأيه في قضية حصن بيت الأحزان[٧٤]، الذي بناه الفرنجة حديثاً وطبيعة التعامل معه[٧٥]،

٦٨. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص١٥٣-١٥٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٥٠؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٢٥٩؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢١-٢٧؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جح٢، ص٧٤؛ ابو الفداء، المختصر، ج٢، ص١٤١.

٦٩. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص١٦١؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٥٥؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٦. وبانياس مدينة تقع على ساحل البحر المتوسط، تتبع محافظة طرسوس، تبعد عن طرسوس ٣٨كم شمالاً أنظر: مصطفى طلاس ومشرف، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ٥مج، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٩٢م، مج١، ص٢٢٦..

٧٠. رعبان: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرت. انظر: ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ج، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج٣، ص٥٨.

٧١. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص١٧٣؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٥٨؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٢٦٣؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٣١؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٧٩، ابن سباط، تاريخ ابن سباط، ج١، ص١٥٣.

٧٢. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص١٧٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٢٦٣؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٣١.

٧٣. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص١٧٥؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢،ص١٤٢.

٧٤. بيت الأحزان: بلد بين دمشق والساحل، عمره الأفرنج وبنوا به حصناً حصيناً. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٦١٥.

٧٥. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٥؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٦ (رواية ابن أبي طيئ)

حيث أن صلاح الدين بعد انتصاره في معركة مرج عيون سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م[٧٦] بدأ التفكير في طريقة هدم الحصن، واستقر رأيه على دفع مبلغ مالي للفرنجة مقابل قيامهم بهدمه، ووصلت المفاوضات إلى دفع مبلغ مائة ألف دينار، غير أن تعثر المفاوضات، وطلب الفرنجة مبلغاً أكبر، وتأييد معظم قادة صلاح الدين لزيادة المبلغ[٧٧]، دفعت صلاح الدين لاستشارة قائده الأبرز، والمخطط الاستراتيجي البارز لديه، في كيفية التعامل مع الحصن، فأشار تقي الدين إلى رفض دفع مبالغ مالية للفرنجة مقابل هدم الحصن، واقترح دفع مبلغ المائة ألف لتجهيز حملة تقوم بهدمه[٧٨]، هذا وأن صلاح الدين لم يقصد الاستشارة فقط، وإنما أراد من قائده في المنطقة الوسطى والشمالية من بلاد الشام تقديم تصوره لأمان منطقته، ومدى قدرته على الإسهام في الحملة على الحصن، ويبدو أن تقي الدين طمأنه على هذا الموضوع أيضاً، وبادر بالتحرك فوراً على رأس قوته المتحركة "الألف مقاتل" إلى دمشق، ومنها سار مع صلاح الدين إلى الحصن، وأسهم مساهمة فاعلة في السيطرة عليه بسرعة فائقة، ثم تدميره[٧٩].

وانصرف تقي الدين بعد هذه المعركة إلى تحصين حماة، وتقوية الجبهة الشمالية والوسطى من بلاد الشام المسؤول عن حمايتها[٨٠]، إلاَّ أن مرض الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين حاكم حلب أقلق صلاح الدين المقيم بمصر، وقادته في بلاد الشام، فاضطر تقي الدين إلى اتخاذ مَنْبِج[٨١] قاعدة ليراقب منها تطورات الأوضاع في حلب والموصل[٨٢]، وبدا القلق الكبير واضحاً على صلاح الدين الذي أدرك خطورة الوضع، وهو ما توضحه رسائله المتتالية إلى قائدَيْهِ في بلاد الشام تقي الدين وشقيقه عز الدين التي تطالبهما بتوخي الحذر، وضرورة إبلاغه بتطورات الأوضاع على نحو متتابع وسريع، وأكد على ضرورة الاستنفار العسكري[٨٣]، وكان هذا القلق مسوّغاً إذ أن وفاة الصالح في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م، ووصيته بانتقال حكم حلب لابن عمّهِ حاكم الموصل عز الدين مسعود كان يعني توحّد الموصل وحلب بقيادة عز الدين في مواجهة صلاح الدين، لذلك سارع عز الدين بعد إبلاغه بوفاة الملك الصالح إلى التوجه على رأس قوات الموصل

---

٧٦. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص١٨٠؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٥، وانظر: الحياري، صلاح الدين، ص٢١٨-٢١٩.

٧٧. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٥؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٦ (رواية ابن أبي طيئ)

٧٨. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٥-٢٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٦؛ La monte, Taki Eddin, p.150.

٧٩. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص١٧٥؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٦-٣٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٥٦-٤٥٧؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٣٦.

٨٠. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص١٤٥؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٥.

٨١. مَنْبِج: بلد قديم بينه وبين القرات ثلاثة فراسخ وإلى حلب عشرة فراسخ، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٣٧-٢٣٨، وهي الآن مدنية في هضبة حلب الشرقية، تتبع محافظة حلب، انظر: مصطفى طلاس (مشرف)، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مج٥، ص٣٤٨

٨٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٧٤؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٧٨.

٨٣. الأيوبي، مضمار الحقائق، ٦٠-٦١؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٨٠-٨٤.

إلى حلب، وبدا وكأنه سيطالب بإعادة بلاد الشام إلى الحكم الزنكي[٨٤]، وقد استجاب أهل حماة لفكرة العودة للحكم الزنكي من خلال التمرد على نواب تقي الدين بمجرد علمهم بدخول عز الدين إلى حلب، الأمر الذي دفع تقي الدين للانسحاب من مَنْبج، والتراجع إلى حماة في محاولة منه للقضاء على تمرد أهلها، وهو ما نجح به[٨٥]، وكان هذا الانسحاب من تقي الدين الذي قدمته بعض المصادر بصورة الهزيمة[٨٦]، منطقياً من الناحية العسكرية حيث أن حماة هي مفتاح الدفاع عن دمشق، وضبط الوضع فيها أهم من مناوشة القوات الزنكية في منبج، وقد نجح تقي الدين بمنع الزنكيين من الافادة من ضمهم لحلب، ومنعهم من التقدم إلى أراضي الأيوبيين، وهي المسألة التي قدمها ابن الأثير ضمن التزام عز الدين مسعود بعهوده مع صلاح الدين[٨٧]، غير أن عز الدين لم يتمكن من التحرك من حلب باتجاه حماة وحمص ودمشق، كما اقترح بعض قادته لقوة الإجراءات الدفاعية التي اتخذها تقي الدين، وسرعة سيطرته على التمرد الحاصل في حماة[٨٨].

إن هذه التطورات، وقدرة تقي الدين على استيعاب ما حدث في حلب، دفعت صلاح الدين إلى التوجه إلى دمشق، واضعاً نصب عينيه السيطرة على حلب، وتوحيد بلاد الشام تحت حكمه، وإخضاع الزنكيين لسلطته، خصوصاً بعد قيام عز الدين مسعود بتبديل حلب مع شقيقه عماد الدين مقابل سنجار ومناطقها، مما أشعر صلاح الدين بقدرته على السيطرة عليها[٨٩]. لذلك بدأ بمراسلة الخلافة العباسية للمطالبة بمنحه مدينة حلب، وإضفاء الشرعية على سيطرته عليها، وبخاصته أنه كان يرى أنها حق من حقوقه كسلطان لبلاد الشام، ومقدماً مسوّغات كثيرة في هذا المجال[٩٠]، واتبع كتبه إلى الخلافة بقدومه إلى دمشق استعداداً للسيطرة عليها، إلا أن تأخر وصول التفويض من الخلافة دفعت صلاح الدين ليقوم بغارات محدودة على الفرنجة شاركه فيها تقي الدين[٩١]،ثم انطلق من دمشق لمهاجمة الموصل في إطار مشروعه لضم حلب، وشاركه في هذا الهجوم تقي

٨٤. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٦٠-٦١؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٧٢-٢٧٢؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٢٣-١٢٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٢٧٩؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٧٧-٨١.

٨٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٧٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٢٧٩؛ ابن العديم، كمال الدين عمر بن احمد بن أبي جرادة (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) زبدة الحلب من تاريخ حلب، (٣ج)، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، دمشق، ١٩٦٨، ج٣، ص٧٩٢؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٧٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢،ص١٠٨.

٨٦. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٧٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٢٧٩.

٨٧. ابن الأثير،الكامل،ج١١، ص٤٧٤.

٨٨. المصدر نفسه، ج١١، ص٤٧٤.

٨٩. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٧٤-٤٧٥؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٢٤٠١٢٥؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٢٧٩-٢٨٠؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٧٨-٧٩.

٩٠. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٦٢-٦٥؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٨٢-٨٨؛ الحياري، صلاح الدين، ص٢٣٤-٢٣٧.

٩١. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٩٥-٩٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٨٠؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص١٠٦-١١٠.

الدين، لذلك قطع الفرات وهاجم العديد من المدن في الجزيرة الفراتية وضمها إليه، وسانده في عمله هذا تقي الدين[٩٢]، ثم حاصر الموصل غير أنه فشل في اقتحامها فانسحب من أمامها[٩٣]، وهاجم سنجار بمساعدة نشطة من تقي الدين، وتمكن من السيطرة عليها[٩٤]، ثم توجه إلى حَرّان[٩٥] للاستراحة فيها، وأعاد تقي الدين إلى حماة لمراقبة جبهة الفرنجة فيما يظهر، خصوصاً أن عز الدين فرخشاه توفي في هذه السنة (٥٧١هـ/١١٨١م)، فأراد صلاح الدين إرساله إلى حماة درء أي محاولة فرنجية للافادة من وفاة فرخشاه، ولكن حكام الموصل استطاعوا خلال، استراحة صلاح الدين، تكوين حلف لمواجهته، مما أجبره على استقدام تقي الدين من حماة لمواجهة هذا الحلف، ولما وصل تقي الدين إليه عقد مجلس مشورة فيما يفعل، فكان رأي القادة البقاء في حرّان وانتظار تقدم قوات الحلف الزنكي نحوهم، في حين أشار تقي الدين إلى ضرورة التحرك نحو آمِد، والمبادرة بالهجوم، فأخذ صلاح الدين برأيه، فلما تقدم صلاح الدين تجاه آمِد تفرّق الحلف، وخاف كل منهم على بلاده، مما مكّن صلاح الدين من السيطرة على آمِد[٩٦]، ثم لما تأكد من عدم قدرة القوى العسكرية في المنطقة على مواجهته اتجه إلى حلب، وحاصرها مما دفع صاحبها عماد الدين زنكي إلى عرض التنازل عنها مقابل منحه سِنْجار ومناطقها، وكان الوسيط في هذه المسألة تقي الدين[٩٧]، وقد وافق صلاح الدين على العرض بعد أن استشار تقي الدين لأن سنجار كانت من إقطاعاته، فوافق على التنازل عنها، مقابل ضم حلب للدولة الأيوبية، مما دفع صلاح الدين لأن يعد بمنحه حلباً مقابل تنازله عن سنجار[٩٨]، غير أن قلق صلاح الدين على مصر من غارات الفرنجة، ورغبة شقيقه العادل بحلب، دفعت صلاح الدين إلى تغيير خططه، خصوصاً أنه قرر الإقامة بدمشق بعد وفاة عز الدين فرخشاه، فمنح حلب للعادل وقرر تسليم نيابته في مصر لتقي الدين، وذلك في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، وكان من أهداف صلاح الدين لهذا الخيار أيضاً تفعيل الجيش الأيوبي في مصر من خلال نخبة تقي الدين العسكرية[٩٩] وتفعيل مشروع الشمال الإفريقي، وكان هذا الأمر سارّاً لتقي الدين الذي عَدَّهُ مكافأة له على جهوده في

٩٢. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص٢٤-٣٠؛الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٠٢-١٠٦.
٩٣. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص٣٠؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٠٦.
٩٤. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص٤٠؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١١٠.
٩٥. حرّان: هي قصبة ديار مضر بينها وبين الرُّها يوم وين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٧١.
٩٦. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٨٩؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٢٨٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص١٢٦، ١٤٢.
٩٧. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٤٣؛ ابن العديم؛ كمال الدين عمر بن احمد بن أبي جرادة (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، (١١ج) تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م، ج٨، ص٣٨٦١.
٩٨. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص١١٨؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٤٢-١٤٣.
٩٩. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص١٥٢-١٥٨؛ البستان الجامع، ص٤١٨-٤١٩؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٥٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٠٢؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٣٥؛ ابو شامة، الروضتين، ج٣، ص١٩٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٥٢، ابو الفداء، المختصر، ج٢،ص١٤٩.

خدمة صلاح الدين، وكذلك تمركزه في مصر يجعله قريباً من قادته المنفذين في الشمال الإفريقي.

وشارك تقي الدين في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بحملة صلاح الدين على الكرك[١٠٠]، وبعدها عكف على ضبط الأوضاع الداخلية لمصر[١٠١]، في حين كان صلاح الدين يقوم بحملة جديدة على الموصل لإخضاعها إلاَّ أن حصانة المدينة حالت دون سيطرته عليها[١٠٢]، ثم ما لبث أن مرض في سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م مرضاً أشرف فيه على الموت، واشيعت حول مرضه إشاعات فجرت طموحات كبار أفراد الأسرة الأيوبية الطامحين لخلافته في الحكم، وهو الخلاف الذي أسهم فيه تقي الدين وسنناقشه لاحقاً[١٠٣]، ولما عُوفي صلاح الدين من مرضه، قام بعقد صلح مع الزنكيين في الموصل أخضعهم بموجبه لسلطته[١٠٤]، ثم توجه إلى دمشق ليبدأ بالتفكير في ضمان انتقال السلطة في الدولة الأيوبية لأبنائه، ليتفرغ بعدها لمواجهة الفرنجة مواجهة شاملة خصوصاً أنه لم يعد له منافس من المسلمين، وأخضع كل القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية تحت رايته، فقام بنقل تقي الدين من مصر إلى الشام، ونقل العادل من حلب إلى مصر، في خطوة أغضبت تقي الدين، وذهبت المصادر في تفسيرها مذاهب متعددة سنناقشها فيما بعد[١٠٥]، غير أن تقي الدين في غضبه هذا لم يقدر أنَّ صلاح الدين، وقد أجمع على مواجهة الفرنجة مواجهة شاملة، احتاج إلى قائده الميداني الأبرز، ومخططه الاستراتيجي الأول، ليكون إلى جانبه في بلاد الشام حيث ميدان القتال، واحتاج إلى دعم مصر الاقتصادي، والعسكري وإن كان الأقل، وهو الدور المناسب للعادل صاحب الخبرة والقدرة الإدارية العالية، إضافة إلى حاجته إلى النخبة العسكرية التابعة لتقي الدين، والتي أصبحت تشكل نخبة الجيش الأيوبي، لذلك أصرَّ صلاح الدين على قدوم تقي الدين ونخبته العسكرية إلى دمشق، ولما هدّد تقي الدين بالذهاب إلى المغرب بذل صلاح الدين جهوداً مُضنية لاستقدامه إلى دمشق، وبيّن سبب إصراره على استقدامه بقوله:"إن فتح المغرب مهم، لكن فتح بيت المقدس أهم... وإذا توجه تقي الدين واستصحب معه رجالنا

١٠٠. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٨٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٠٦؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٣٨-١٤٠؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص٢٤٠-٢٤٢؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٣٠١؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص١٢٤؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٠٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٥٧؛ La monte, Taki Eddin, p.153

١٠١. المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٩٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٦٣.

١٠٢. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢١٤-٢١٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥١١؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٤١؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص١٧٨؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٣٠٤؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٢٧.

١٠٣. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٢٦-٢٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥١٨،٥١٧؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٤٤؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص١٨١؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٣٩؛ ابن أبي الهيجاء، تاريخ، ورقة ١٨٢ب.

١٠٤. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص١٦د؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٤٥؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٣٥.

١٠٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٢٣؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٤٩؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص١٨٠-١٨١؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٥٦؛ ابن أبي الهيجاء، تاريخ، ورقة ١٨٣ب.

المعروفة ذهب العمر في اقتناء الرجال"[١٠٦]. وعبر المجهول المشارك في الحملة الصليبية الثالثة عن أهمية تلك النخبة العسكرية المرتبطة بتقي الدين بقوله:"كان تقي الدين هذا رجلاً عميق الكراهية والمقت للمسيحيين، وعنده رغبة جامحه في الانتقام منهم انتقاماً وحشياً، وكان معه إذ ذاك أكثر من سبعمائة مقاتل تركي من أصلب المقاتلين عوداً، قد اختارهم له صلاح الدين من خاصة رجاله، وعهد بهم إليه، يأتمرون بأمره، ويتوجهون أينما توجه"[١٠٧].

فلما قدم تقي الدين استقبله صلاح الدين خارج دمشق في محاولة لإرضائه، وردَّ عليه إقطاعه حماة، ومنبج، والمعرة، وميافارقين ومعاقلها، وسيره إلى حماة لضبط جبهتها[١٠٨]. ولما قرر صلاح الدين حسم الصراع مع الفرنجة، وبدأ تحركه في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م قام بتقسيم قواته إلى قسمين، الأول بقيادة ابنه الأفضل ومعه قوات دمشق، وعسكر قرب رأس العين[١٠٩] انتظاراً لوصول تقي الدين وقوات حماة، وحلب والقوات الشرقية، والثاني بقيادة صلاح الدين واتجه نحو الكرك لمضايقتها، وحماية قافلة الحج العائدة من مكة[١١٠]، وطلب من تقي الدين قبل التحاقه بقوات دمشق تمتين جبهة حماة وحلب وتحصينها، ومراقبة تحركات قوات إمارة أنطاكيا لمنعها من استغلال تقدم صلاح الدين وقواته إلى فلسطين لمهاجمة حماة وحلب، فقام تقي الدين بالتوجه إلى حلب، ورتب أمورها، وحصنها، ثم عقد هدنة مع إمارة أنطاكيا في العشر الأخير من ربيع الأول سنة ٥٨٣هـ/أوائل حزيران سنة ١١٨٧م ضمن بها تحييد إمارة أنطاكيا في الصراع مع مملكة القدس الفرنجية[١١١]، ثم قام تقي الدين باستقبال القوات الشرقية وسار بها مع قوات حماة وحلب إلى دمشق منتظراً وصول صلاح الدين من الكرك، فلما عاد صلاح الدين بدأ تحركه نحو طبرية، حيث فرض عليها الحصار، وتمكن من اقتحام البلد دون القلعة، مما دفع بالقوات الفرنجية المتجمعة في صفورية الحصينة للتوجه نحو طبرية حيث التقى الطرفان في معركة حطين التي لعب فيها تقي الدين دوراً مهماً من الناحية الميدانية، وسلمت إليه قيادة ميمنة الجيش، وكلف بمهمة

---

١٠٦. البنداري، سنا البرق الشامي، ص٢٨١؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٥٦، أبو الفداء، المختصر، ج٢،ص١٥٤، ابن أبي الهيجاء، تاريخ، ورقة ١٨٤أ.

١٠٧. الحرب الصليبية الثالثة (ريتشارد وصلاح الدين)، ج٢، ص٨٨، ويبدو أن نخبة تقي الدين تقلصت بعد سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م، إلى سبعمائة مقاتل لخسارته جزءاً منهم في معاركة السابقة، وإرسال جزء منهم إلى الشمال الإفريقي دعماً لقراقوش سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م.

١٠٨. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٤٩-١٥٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٢٤؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص٢٨١؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٣١٢؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٥٧؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٨١؛ أبو الفداء،المختصر، ج٢، ص١٥٤؛ La monte, Taki Eddin, p.154.

١٠٩. رأس العين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حَرّان ونصيبين ودُنيسر، بينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً وقريب من ذلك بينها وبين حَرّان، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٥.

١١٠. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٥٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٢٩-٥٣٠؛ ابو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٩٢-٢٩٣.

١١١. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٥١؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٨٣٧؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٩٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٨٨.

حماية مصدر المياه الوحيد في حطين، ونجح في المهمة ومنع الفرنجة من الوصول إليه، وعسكر عند قرون حطين، وسدَّ الممر الوحيد المؤدي إلى المياه، ثم لما بدأت المعركة وأُنهكت قوات الفرنجة من العطش، وغارات المسلمين عليهم، وحرارة الجو، حاول أمير طرابلس محاولة أخيرة لزعزعة قوات تقي الدين، وفتح الطريق إلى مصدر المياه وقرية حطين، حيث هاجم قوات تقي الدين بشكل مفاجئ، إلاَّ أن تقي الدين بادر بسرعة شديدة إلى عدم الاشتباك معهم، وأمر قواته بالقيام بعملية انفتاح في صفوفه، بحيث أوجد فجوة مرَّ منها ريموند الثالث (Raymond III) أمير طرابلس وقواته، ثم أمر قواته بسد الفجوة، ليخُرج تلك القوة من أرض المعركة، لأنها لم تستطع الرجوع لقوة دفاعات تقي الدين، مما أفقد الجيش الفرنجي جزءاً مهماً من قواته، وأدى لانهيار معنوياته، فسقط جنوده وانهاروا سريعاً أمام ضربات صلاح الدين، مما أدى إلى تدمير الجيش الفرنجي، وأسر معظم قادته، وتحقيق نصر مؤزر في معركة حطين[١١٢].

وبعد معركة حطين شارك تقي الدين في استعادة عكا، ومنح مكافأة له على دوره في استعادتها دار السُّكَّر بها بما تحويه من أموال ونفائس[١١٣]، ثم أرسل للسيطرة على حصن تِبْنِين في الجليل الأعلى، ولكن قوات تقي الدين لم تكن مجهزة بالآت الحصار، لذلك طلب تقي الدين دعم صلاح الدين الذي سارع للحاق بتقي الدين مع المعدات اللازمة لحصار الحصن، مما أجبر حاميته على الاستسلام[١١٤]، وبعد استكمال صلاح الدين السيطرة على القلاع والحصون الساحلية، توجه نحو القدس يرافقه تقي الدين، وكان معه في حصارها؛ ثم استسلامها لصلاح الدين[١١٥].

وشارك تقي الدين في حصار مدينة صور التي صمدت أمام جيوش صلاح الدين لمدة شهر ونصف مما دفع الكثير من أمراء الجيش للتذمر والرغبة في فك الحصار، الأمر الذي أجبر صلاح الدين على فك حصار المدينة، وسمح لقادته بالعودة لديارهم، وكان من القادة العائدين تقي الدين الذي عاد إلى حماة[١١٦]، وبدأ بعدها صلاح الدين بإعادة تنظيم خططه لاستعادة الباقي من

---

١١٢. العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد صبح، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٦٩-٨٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٣٢-٥٣٧؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٥٢- ١٥٤، البنداري، سنا البرق الشامي، ص٢٩٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٩٣-٢٩٥؛ La monte, Taki Eddin, p.154

١١٣. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص٨٨-٩١؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٣٩-٥٤٠؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٥٨؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٣١١ (نقلاً عن المفقود من كتاب البرق الشامي للأصفهاني).، ويبدو أن المقصود بها أحد القنادق التجارية الكبرى في عكا.

١١٤. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص٩٩-١٠١؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٤١-٥٤٢؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٣٢١.

١١٥. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص١١٦-١٣٦، ١٤٣. تبنين: بلدة في جبال بني عاملة المطلة على بانياس بين دمشق وصور. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٦، وتقع الآن في جنوب لبنان.

١١٦. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص١٧٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٥٤-٥٥٦؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٦٤-١٦٥ (ويجعل ابن الأثير وابن شداد صلاح الدين هو الذي ضجر من القتال، وتابعه الأمراء على فك الحصار)؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٤١١-٤١٣، نقلاً عن البرق الشامي للأصفهاني.

الأراضي الإسلامية، فتوجه في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م نحو جَبَلة واللاذقية لتحريرها، وكلّف تقي الدين والظاهر بن صلاح الدين (ت٦١٣هـ/١٢١٦م) حاكم حلب بحماية منطقتهما من غارات إمارة أنطاكيا، ومنع الإمارة من تقديم أي مساعدة لجبلة واللاذقية، فلما أنجزا المهمة التحقا بحملة صلاح الدين، وشاركا في إخضاع المدينتين وغيرهما من الحصون، فلما انتهت الحملة عاد صلاح الدين إلى دمشق غير أن تقي الدين اعترض طريقه، وأصر على ضيافته في حماة، فقبل صلاح الدين، وقام بمنحه مدينتا جبلة واللاذقية إقطاعاً إضافياً له[١١٧].

ثم برز دور تقي الدين في التصدي لهجوم الفرنجة الصليبيين على عكا الذين قاموا بفرض حصار عليها في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م مما دفع صلاح الدين للتوجه على رأس قواته لفك الحصار عنها، فوجد الفرنجة محاصرون لها، إلاّ ان هجوم تقي الدين عليهم دفعهم لفتح ممر لقوات صلاح الدين للوصول للمدينة حيث زودت بالرجال والمؤن[١١٨]، وبقي تقي الدين إلى جانب عمه صلاح الدين في مواجهة الحملة الفرنجية الصليبية الثالثة التي أسهمت في حصار عكا، وكان لتقي الدين دور بارز في كسر حدة الهجوم الفرنجي، وخصوصاً في وقعة المصاف الأعظم التي هزم فيها قلب جيش صلاح الدين، ووصل الفرنجة إلى خيمة صلاح الدين الذي ثبت في مواجهتهم، وقام تقي الدين بشن هجوم مع بقايا ميمنة الجيش التي كانت تحت قيادته تمكن بها من رد الفرنجة إلى مواقعهم، وتجنيب الجيش كارثة الهزيمة[١١٩]، وبقي إلى جانب صلاح الدين حتى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م حيث أقطعه صلاح الدين حَرَّان والرُّها، فسار إليها لترتيب أوضاعها، ثم يعود مع جيوشه إلى عكا لمساندة صلاح الدين، فلما وصل تقي الدين إلى حَرَّان والرها في صفر ٥٨٧هـ/١١٩١م، ورتب أمورها، طمع في زيادة اقطاعاته من خلال ضم المناطق المجاورة بها، فهاجم مدينة حاني في ديار بكر وسيطر عليها، ثم واجه صاحب خلاط وهزمه. وحاصرها، غير أن قلة جنوده (سبعمائة فارس) أفشلت حصاره لها، لذلك فك عنها الحصار، ثم توجه لحصار ملاذكرد التي طلبت حاميتها مهلة لتسليمها، غير أن تقي الدين أصيب بمرض أمامها أدى لوفاته في ١٩ رمضان سنة ٥٨٧هـ/١٢ تشرين الأول١١٩١م[١٢٠].

---

١١٧. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص٢٣٥-٢٦٥؛ ابن الأثير، ج١٢، ص٧-٢٠؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٧٠-١٧٨؛ أبو شامة، الروضتين، ج٤، ص٨-٤٤؛ ابن أبي الهيجاء، تاريخ، ورقة ١٨٨أ. جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٢٢؛ وجبلة الآن مركز ناحية في جبال اللاذقية والسهل الساحلي، تتبع محافظة اللاذقية، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مج٢، ص٦٣١.

١١٨. ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٣٤-٣٥.

١١٩. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص٣٠٨-٣١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٣٧-٣٩؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٠٠-٢٠٣؛ ابن أبي الهيجاء، تاريخ، ورقة ١٩١ب.

١٢٠. العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص٤٣٤؛ الفتح القسي، ص٥٦٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٢،ص٦٢-٦٣؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٣٤٠-٣٤١؛ أبو شامة، الروضتين، ج٤، ص٢٤٠، ٢٥٣، ٢٩٠.

الدور الإداري والعمراني والخيري لتقي الدين:

كان الدور الإداري (النيابة) للقادة العسكريين الموكل إليهم أمر الحكم في بعض المدن أو المناطق في عهد صلاح الدين أقرب لرئاسة الجهاز العام للمنطقة الموكول للقائد إدارتها، مع التركيز على قيادته لجيشها، وحفظها من اعتداءات القوى المحيطة بها، المناوئة لدولة صلاح الدين سواء الإسلامية منها أو الفرنجية-الصليبية، لذلك كان الدور الإداري مرتبط بالدور العسكري، بل يغلب عليه الدور العسكري، ومن هنا يصعب أحياناً الفصل بين الإداري والعسكري في دولة صلاح الدين[١٢١].

بدأ العمل الإداري لتقي الدين منذ وصوله إلى مصر حيث كلف بالمسؤولية الإدارية والعسكرية للمشروع الأيوبي في الشمال الإفريقي، ثم أوكلت له مهمة النيابة عن صلاح الدين في مصر في شهر صفر سنة ٥٧٠هـ/أيلول ١١٧٤م في أثناء تقدم صلاح الدين في بلاد الشام للسيطرة عليها بعد وفاة نور الدين زنكي، وانتهت تلك النيابة في شهر رمضان من السنة نفسها[١٢٢].

ثم تولى ولاية دمشق من شهر محرم سنة ٥٧١هـ/تموز ١١٧٥م إلى شهر صفر من سنة ٥٧٢هـ/آب١١٧٦م عندما استبدله صلاح الدين بتورانشاه كبير الأسرة الأيوبية آنذاك[١٢٣]، وأصطحبه صلاح الدين معه إلى مصر لتفعيل مشروع التوسع في الشمال الأفريقي حيث أرسل قراقوش التقوي مرة أخرى إلى المغرب في هذه السنة[١٢٤]. ولا تذكر المصادر أية معلومات عن المسؤوليات الإدارية له في هذه الأعمال، ربما لصغر مدة تلك المهام، أو لانشغال المصادر في متابعة أخبار صلاح الدين وتوسعه في وسط وشمال بلاد الشام.

أما عمله الإداري المهم، فقد تولاه في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م عندما عين حاكما لحماة ومقطعاً لها رغبة من صلاح الدين في تمتين جبهتها، ووقوفها في مواجهة إمارة أنطاكيا الإفرنجية التي استغل أميرها بُعْدَ صلاح الدين في مصر ودمشق، لمهاجمة حماة وحلب، وهي النيابة التي بقي تقي الدين متولياً لها حتى وفاته في سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م، وامتدت طوال حياته حتى وصلت لتشمل: مَنْبج، وسَلَمْيَة، والمَعَرَّة، وحَرَّان، وسُمَيْساط، وجَبَلة، واللاذقية، والمُوْزَّر، ومَيَّافارقين، والرُّها، والسويداء، وحاني[١٢٥].

---

١٢١. يجدر التنويه هنا إلى أن الدولة الأيوبية تأثراً بالزنكيين المتبعين للنظام السلجوقي، قاموا بتقسيم الدولة إلى إقطاعات عسكرية توزع على أفراد الأسرة وكبار أمراء الجيش، وذلك بديلاً للرواتب، حيث يطلب من المقطع بدلاً من إقطاعه تقديم الولاء للدولة، والخدمة العسكرية لها، إضافة لإدارة إقطاعه، والقيام ببعض الواجبات الاقتصادية فيه، لذلك تداخل العسكري والإداري في الدولة الإيوبية لهذا السبب، انظر حول الإقطاع الأيوبي: فوزي الطواهية، الإقطاع العسكري (الحربي) في بلاد الشام في العصر الإيوبي، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، المجلد الثالث، العدد الثاني، ٢٠١٢م، ص١٦-٢٤.

١٢٢. البنداري، سنا البرق الشامي، ص٨٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢،ص٣٧٨.

١٢٣. البنداري، سنا البرق الشامي، ص٨٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤٢٥،٣٩٠.

١٢٤. أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤١٨؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، مج٤، ص٤٥٧.

١٢٥. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص١٥٥؛ البستان الجامع، ص٤٣٤؛ الفتح القسي، ص٥٦٦؛ ابن الأثير،

وتولى في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م نيابة مصر، مضافة لولايته على حماة وأعمالها، واستمر والياً عليها حتى سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م، حيث كانت هذه النيابة الإدارية لتقي الدين على مصر أول ولاية إدارية حقيقة له، حيث أنَّ ولاياته السابقة يغلب عليها الطابع العسكري، ولا يقيم في مقر ولايته، بل يستمر في قيادة نخبته العسكرية لمواجهة القوى المناوئة المختلفة منفرداً، أو إلى جانب صلاح الدين، بينما قضى ثلاث سنوات في مصر لم يخرج منها سوى لمشاركة صلاح الدين في غزو الكرك(١٢٦)، فانعكف بها على إدارة شؤون مصر الداخلية المختلفة، وتفعيل مشروع غزو الشمال الإفريقي(١٢٧)، ولعل أهم ما يدل على خصوصية هذه الولاية قول المنصور بن تقي الدين:"وحَكَّمَهُ على جميع مصر والولاية بأسرها، وصرَّفهُ عنها تصرف الملاك"(١٢٨)، وكتاب التولية الصادر في شعبان سنة ٥٧٩هـ/تشرين الثاني ١١٨٣م الذي أصدره صلاح الدين لتقي الدين، ونصَّ على "قلدناه ولاية الممالك والبلاد والثغور والديار المصرية، وعذقناها بكفايته، وأولينا النظام بولايته... وعولنا عليه في سياسة مملكتها، وحماية حوزتها، والذَّب عن بيضتها، وفوضنا إليه نظرة أمورها... وأمرنا كافة الأمراء والنواب والعساكر المنصورة المصرية على اختلاف طبقاتهم، وتفاوت درجاتهم، بامتثال أمره، والانقياد لحكمه، والتصرف على رسمه، والحضور إذا طلبهم... وجعلنا يده يدنا.... وأمضينا سيفه إذا اقتضته حدود الله في الآجال، وأطلقنا قلمه في الأرزاق"(١٢٩).

إنَّ هذا المنشور ليؤكد تفويض تقي الدين جميع شؤون مصر العسكرية والإدارية والمالية، ولذلك قام صلاح الدين بإرسال القاضي الفاضل مستشاره الأول، وأبرز الإداريين في دولته، مع تقي الدين إلى مصر، لضبط الشؤون الإدارية في مصر لعلمه قلة خبرة تقي الدين فيها، ولحدة تقي الدين التي لا تناسب رئاسة الجهاز الإداري ليعمل الفاضل على التخفيف منها(١٣٠).

ويدل على خصوصية هذه الولاية أيضاً مقدار الإقطاعات التي منحها صلاح الدين لتقي الدين مقابل نيابته، واتخاذه قراراً استثنائياً يدل على عظم مكانة تقي الدين عند صلاح الدين، وعظم المسؤولية التي سيقوم بها في مصر، المرتبط بإبقاء أقطاعاته في بلاد الشام (حماة وأعمالها) بيده

الكامل، ج١٢، ص٨٣؛ أبو شامة، الروضتين، ج٤، ص٢٩٠. سَلَمْيَة: بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٢٤٠، وهي الآن مدينة في هضبة حماة الشرقية، مركز منطقة السلمية، تتبع محافظة حماة، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مج٣،ص٦٤٨. المعرة: بليدة بنواحي حلب، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٥٥؛ وهي مدينة في جبل الزاوية، محافظة إدلب، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مج٢، ص١٠٢، ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٣٥. الرُّها: مدينة بالجزير قبين الموصل والشام، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٠٦.

١٢٦. البنداري، سنا البرق الشامي، ص٢٤٥.

١٢٧. المصدر نفسه، ص٢٨٠.

١٢٨. مضمار الحقائق، ص١٥٥.

١٢٩. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص١٥٧-١٥٨؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٥٥-١٥٦.

١٣٠. العماد الأصفهاني، ج٥، ص١٥٥-١٥٦، الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٥٦.

رغم نقله إلى مصر، وهو الأمر الذي لم يفعله صلاح الدين مع غيره من أفراد أسرته، أو قادته الكبار، وكانت تلك الاقطاعات حسب رواية العماد الأصفهاني هي: الفيوم وأعمالها بجميع جهاتها وجواليها، والقايات وبُوْش مع احتفاظه بحماة وأعمالها[١٣١].

في حين ذكر المنصور بن تقي الدين أن إقطاعات والده تقي الدين مقابل ولايته على مصر إضافة إلى حماة وأعمالها هي: البحيرة جميعها بمصر، وهي باربعمائة ألف دينار، والفيوم وهو بثلاثمائة ألف دينار، وقاي وقايات وبُوْش، وهي بسبعين ألف دينار، ثم عوض عن بوش بسَمَنُّود والواحات، وهي بستين ألف دينار، وكان له في كل شهر على الإسكندرية ألف وخمسمائة دينار (١٨ ألف دينار سنوياً) [١٣٢]، أي أن مجموع قيمة إقطاعاته بمصر (٨٤٨) ألف دينار، يضاف إليها إقطاعاتها في حماة وأعمالها. ويجب ملاحظة أن المنصور كان نائب والده في مصر، وكان معه في الولاية، ومن هنا تغدو روايته أدق من رواية العماد الأصفهاني، وخصوصاً أن ابن أبي طيء أيد المنصور، فقال: "أقطع السلطان تقي الدين الإسكندرية ودمياط، وجعل لخاصته البحيره والفيوم وبُوْش، ثم عوضه عن بوش، سمنود وحوف رمسيس، وذكر غير ذلك"[١٣٣].

إنَّ هذه الاقطاعات لتؤشر إلى مكانة تقي الدين باعتباره الرجل الثاني بعد صلاح الدين في الدولة من الناحية العسكرية، وكبير البيت الأيوبي بعده، ولخطورة المهمة ـــ فيما يظهر ـــ الملقاه على عاتقه في مصر، حيث أنه كلف مع نخبته العسكرية بحمايتها، ورفع سوية جيشها، وتمتين تحصيناتها، إضافة لتفعيل مشروع السيطرة على الشمال الإفريقي، وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار إرسال صلاح الدين لشقيقه طغتكين إلى اليمن ليعيد السيطرة الأيوبية المباشرة عليها في رجب سنة ٥٧٩هـ/تشرين أول ١١٨٣م[١٣٤]، مما يعني أنَّ تقي الدين سيقوم في مصر بمهمام شقيقي صلاح الدين العادل وطغتكين.

وإذا قمنا بمقارنة مبلغ إقطاع تقي الدين (٨٤٨) ألف دينار سنوياً مضافاً إليه إقطاعه في الشام وهو حماة وأعماله، بإقطاع العادل النائب السابق لصلاح الدين على مصر، والبالغ سبعمائة ألف دينار سنوياً[١٣٥]، يتبين الفرق بين الرجلين، ويظهر أن تقي الدين يمثل فعلياً المقطع الأول في دولة صلاح الدين، والرجل الأول في الدولة بعده، وأنه كلف بمهام أكبر من مهام العادل في مصر.

ورصدت المصادر مجموعة من الأعمال قام بها تقي الدين في أثناء نيابته على مصر، لعل من أبرزها: أحاط مدينة الفسطاط بسور من الحجر[١٣٦]، وقمع الفتنة بين الحنابلة والأشاعرة في

١٣١. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص١٥٥-١٥٦.
١٣٢. مضمار الحقائق، ص١٥٤-١٥٥.
١٣٣. أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص١٩٥ (نقلاً عن أبن أبي طيء)
١٣٤. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص١٥٤.
١٣٥. المقريزي، السلوك، ج١، قسم١، ص٩٠.
١٣٦. المصدر نفسه،ج١، قسم١، ص٩٠.

القاهرة، ومنع الطرفين من إقامة مجالس الوعظ[١٣٧]، وكشف أحوال الإسكندرية، والبحيرة، لغايات تحصيل الخراج[١٣٨]، وتشدد في تحصيله لحاجة الدولة المالية، مما أدى إلى اصطدامه بالملك الأفضل بن صلاح الدين (ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م) في سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، ورفع الخلاف بينهما إلى صلاح الدين الذي وافق تقي الدين على رأيه، واستقدم الأفضل إلى دمشق[١٣٩].

أما عن أعماله العمرانية الخاصة، فبدأت منذ وصوله إلى مصر عندما اشترى الدار المعروفة بمنازل العز والحمام والإسطبل المجاور لها بالقاهرة، وأنشأ بها فندقين، وأنشأ بجوارهما ربعاً، واشترى جزيرة الروضة، ثم لما غادر مصر إلى بلاد الشام سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م حَوَّل منازل العز إلى مدرسة للشافعية عرفت باسم التقوية نسبة له، وقام بوقفها عليهم، ووقف عليها الحمام والإسطبل الذي حوله لفندق، وجزيرة الروضة، والربع، والفندقين[١٤٠]. كما أنشأ في أثناء نيابته على مصر مدرسة للشافعية، وأخرى للمالكية في الفيوم، ووقف عليها وقفاً جيداً[١٤١]، وأنشأ في دمشق المدرسة التقوية للشافعية[١٤٢]، وأنشأ كذلك مدرسة في الرُّها[١٤٣]، إضافة لثلاث مدارس في مدينة حماة[١٤٤].

أما فيما يتعلق بالتحصينات العسكرية، فاشتهر تقي الدين باهتمامه الزائد في تحصين المناطق الخاضعة لإدارته لدرجة جعلت ابن الأثير يقول عنه:"وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع، والغرامة الوافرة عليها"[١٤٥]، وبرز في هذا الإطار اهتمامه بقلعة حماة وأسوارها، حيث أن قلعتها كانت قد دمرت بالزلازل سنة ٥٥٢هـ/١٠٦٠م، وكانت قبل تدميرها ليست بالقلعة الحصينة، فلما أقطعت لتقي الدين حصنها وقواها على حد تعبير ابن العديم[١٤٦]، وقام تقي الدين بتحصين القلعة من خلال قطع جوانب التل المبنية عليه، ووسع من مساحتها، وزاد من ارتفاعها، واستخدم الصخور في بنائها، وشيد داخلها قصراً جميلا، ورفع سور المدينة، وعمق الخندق الموجود

١٣٧. المقريزي، السلوك،ج١، قسم١، ص٨٨.
١٣٨. العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص٤٢١؛ المقريزي، السلوك، ج١، قسم١، ص٨٩-٩٠.
١٣٩. أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٥٥.
١٤٠. المنذري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، التكملة لوفيات النقلة، (٤ج)، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣،١٩٨٤م، ج١، ص١٦٠؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، مج٢، ص٥٧٦، مج٤، ص٤٥٧.
١٤١. المنذري، التكملة، ج١، ص١٦٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣،ص٤٥٦؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، مج٤، ص٤٥٨.
١٤٢. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي الحلبي (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، قسم دمشق، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٦م، ص٢٣٥.
١٤٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٦؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، مج٤،ص٤٥٨.
١٤٤. ابن جبير، محمد بن أحمد الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، دار بيروت للطباعة، بيروت، ١٩٦٨م، ص٢٣١.
١٤٥. الكامل، ج١٢، ص٩.
١٤٦. بغية الطلب، ج١، ص١٤٩.

أمامها[١٤٧]. وكذلك قام بتحصين مدينة اللاذقية لما سلمها إليه صلاح الدين بحيث وصف ابن الأثير تحصينه لها بقوله:"سلمها إلى ابن أخيه تقي الدين عمر، فعمرها وحصن قلعتها حتى إذا رآها اليوم من رآها قبل ينكرها، فلا يظن أن هذه تلك"[١٤٨].

مشاريع تقي الدين السياسية والعسكرية وعلاقتها بصلاح الدين:

حاولت بعض المصادر تصوير العلاقة بين صلاح الدين وتقي الدين وكأنها شهدت مواقف عدائية عدة بينهما، وحاولت في جزء منها الإيحاء وأحياناً تعمدت التوجيه والتصريح بتلك العدائية، وهو ما انعكس على بعض الدراسات الحديثه، وكانت مشاريع تقي الدين السياسية والعسكرية هي الباعث الأساس لمثل هذا الاتهام.

بدأت المشاريع السياسية والعسكرية لتقي الدين في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م عندما قرر اجتماع الإسكندرية ــ الذي ذكرناه سابقاً ــ تكليف تقي الدين بمهمة إخضاع الشمال الإفريقي ضمن المشروع الإستراتيجي لصلاح الدين القائم على إخضاع النوبة والشمال الإفريقي واليمن، ولإنجاز هذا المشروع أمر المجتمعون وعلى رأسهم صلاح الدين بتجهيز الارزاق الخاصة بحملة الشمال الإفريقي، وأضيف لقوات تقي الدين خمسمائة فارس إضافي من جند الدولة آنذاك، وقررت أرزاق الجند وتكاليف الحملة على ضرائب منطقة البحيرة بحيث يأخذون حاجتهم منها، والظاهر أنَّ تقي الدين توجه إلى برقة مع مملوكه بهاء الدين، غير أنه سرعان ما ترك برقة في سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م، وعاد إلى القاهرة بعدما استخلف على قواته في برقة مملوكه بهاء الدين قراقوش التقوي ليكمل مشروعه، وذلك بناءً على طلب من صلاح الدين الراغب بتوجيه حملة النوبة سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م، ثم حملة اليمن، الموكول تنفيذهما لتورانشاه شقيق صلاح الدين، فلم يرغب بإفراغ مصر من قائديه البارزين معاً[١٤٩].

والظاهر أن وجود تقي الدين في مصر ثم في بلاد الشام، لم يجعله يبعد عن مشروع الشمال الإفريقي لكون المباشرين له هم مماليكه وجنوده، ولذلك استمر بتأييد من صلاح الدين وتكليفه بالإشراف على المشروع، ولذلك بدأ منذ سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م بروز اسم بهاء الدين قراقوش التقوي في المصادر على اعتبار أنه المسؤول الميداني للمشروع[١٥٠].

ولعل الدليل على استمرار إشراف تقي الدين على مشروع الشمال الإفريقي تحت رعاية صلاح الدين، إرسال تقي الدين مجموعة من جنوده بزعامة الأمير ناصر الدين إبراهيم سلاح دار[١٥١]

١٤٧. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص٢٦٣-٢٦٤؛ ابن جبير، اعتبار الناسك، ص٢٣٠؛ علي نجم عيسى، حماة في ظل الأيوبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م، ص١٠٦-١٠٩.

١٤٨. الكامل، ج١٢، ص٨.

١٤٩. المقريزي، السلوك، ج١، قسم١،ص٤٨؛ المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٧٥٤.

١٥٠. العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص٤٠٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٨٩.

١٥١. سلاح دار: المتولي لحمل سلاح السلطان أو ألأمير في الاحتفالات، وهو المسؤول عن مخازن السلاح لديه، انظر: ابن فضل الله العمري، احمد بن يحي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، مسالك الأمصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد

تقي الدين في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م إلى الشمال الإفريقي دعماً لقوات قراقوش[١٥٢]، ثم إرساله لمجموعة جديدة في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م برئاسة الأمير شجاع الدين بن شكل لدعم قوات قراقوش أيضاً[١٥٣]، وهذا الإشارة تدل على أن وجود تقي الدين بمصر في السنوات السابقة كان برغبة من صلاح الدين لتفعيل مشروع الشمال الإفريقي من خلال إبقائه في مصر ليشرف على المشروع.

وكذلك من الأدلة على ارتباط المشروع بتقي الدين تلك الأخبار والتقارير الدقيقة التي ترد عند المنصور بن تقي الدين ولي عهد تقي الدين، ونائبه في أعماله، ولا ترد عند غيره من المؤرخين، وذلك استناداً إلى رسائل متبادلة، فيما يبدو، بين قراقوش وتقي الدين، وإلى أخبار شفوية قدمها رسل قراقوش إلى أبيه تقي الدين، وهي المبثوثة في ثنايا كتاب المضمار الذي لم يصلنا منه سوى اخبار سنوات ٥٧٥-٥٨١هـ/١١٧٠-١١٨٥م[١٥٤]، واستمر إشراف تقي الدين على المشروع حتى سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م عندما عزله صلاح الدين عن مصر، فأغضبه العزل، وأراد التوجه إلى الشمال الإفريقي، فأقنعه صلاح الدين بترك الفكرة، وإلغاء المشروع كله، فوجه مملوكه بوزبا لدعم قراقوش، وبعدها لا ترد معلومات ذات قيمة عن مشروع الشمال الإفريقي، ويبدو أن ترك صلاح الدين للمشروع أدى لإلتزام تقي الدين بتركه، مما أدله لفشله، ودخل مقاتلوه بعد انقطاع الدعم عنهم في صفوف دولة الموحدين[١٥٥]، إضافة إلى أن صلاح الدين اعتمد سياسة إبقاء المشاريع تابعة لقادتها الأول، ولذلك أبقي اليمن تابعة لشقيقه تورانشاه رغم تركه اليمن، واستقراره في الإسكندرية، وكان ولاة اليمن نواباً لتورانشاه حتى وفاته سنة ٥٧٦هـ/١١٨١[١٥٦].

ونتيجة هذا المشروع برز اتهام ابن أبي طيئ لتقي الدين بأنه أدار المشروع لوحده، وبعيداً عن صلاح الدين، وأنَّ غايته منه إنشاء مملكة خاصة له بعيداً عن صلاح الدين ودولته، فذكر في حوادث سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م" ولما ملك شمس الدولة(تورانشاه) اليمن سَمَت نفس ابن أخيه تقي الدين إلى الملك، وجعل يرتاد مكاناً يحتوي عليه، فأخبر أنَّ قلعة أزبري هي فم درب المغرب، وكانت خراباً فأشير عليها بعمارتها... فأنفذ مملوكه بهاء الدين قراقوش..." [١٥٧] وهو الاتهام الذي ردده جب (Gibb) عندما اورد في حديثه عن اخبار سنة ٥٦٧هـ/١١٧١:"في تلك الأثناء كان

خريسات وعصام عقلة ويوسف بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ٢٠٠١م، ج٣، ص٢٧٥.

١٥٢. العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص٤٠٥، الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٣٥؛ المقريزي، السلوك، ج١، قسم١، ص٦٥-٦٦، ٧٤، وتجدر الإشارة هنا إلى أن قراقوش عاد إلى مصر في حدود سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م وزوجة تقي الدين بإحدى جواريه، ثم أعاده إلى المغرب، انظر: أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤١٩ (نقلاً عن ابن أبي طيئ).

١٥٣. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٦٧.

١٥٤. المصدر نفسه، ص٣٤، ٥٢، ٦٧، ١٥٨، ٢٠٢، ٢٢٩.

١٥٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٢٠-٦٢٢؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص٢٧٩-٢٨١؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٥٦-٢٥٧.

١٥٦. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٦٨-٤٦٩؛ ــ أبو شامة، الروضتين، ج٣،ص٩٢-٩٤.

١٥٧. أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤١٨-٤١٩.

ابن أخيه تقي الدين عمر، وهو أشد أعضاء الأسرة ولعاً بالحرب وتهوراً، وقد راقب بعين الحسد توزيع الممالك والحكومات على أقاربه... منهمكاً في محاولة ترمي انتزاع مملكة لنفسه في المغرب... إن صلاح الدين، حسب ما تصل إليه الأدلة، لم يشترك في تنظيم هذه الحملات، لكنه من المؤكد تغاضي عنها حتى أنه عزا فضلها لنفسه في رسائل لبغداد"[١٥٨].

إن ما ذهبا إليه كل من ابن أبي طيء وجب لا تؤيده الأدلة حيث أن إرسال قوات عسكرية وتجهيزها بالمعدات لا يمكن أن يكون من غير موافقة صلاح الدين، بل وضمن مشاريعه هو نفسه، وإن تقي الدين في السنوات ٥٦٧هـ/١١٧١م، ٥٦٨هـ/١١٧٢م، ٥٧٣هـ/١١٧٧م لم يكن بالقوة التي تمكنه من التصرف بجزء من قواته الشخصية، وقوات الدولة، وموارد مصر لتجهيز الحملات إلى الشمال الإفريقي من غير أن يكون ضمن خطط صلاح الدين، بل وافتخر صلاح الدين أمام الخلافة العباسية بمشروعه المغربي، وإدخال المغرب تحت راية الخلافة العباسية[١٥٩].

ويبدو أنَّ هذه التهمة المبكرة التي وجهت لتقي الدين هي انعكاس لما حدث سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م عندما قرر صلاح الدين عزل تقي الدين عن مصر، ورغب تقي الدين بالمغادرة إلى الشمال الإفريقي، وعليه فإن مشروع الشمال الإفريقي، مما قدمنا سابقاً، كان ضمن إستراتيجية صلاح الدين لدعم اقتصاديات دولته.

أما المشروع الثاني لتقي الدين، حسب ما تذكر المصادر، فبدأ سنة ٥٨١هـ/١١٨٥-٥٨٢هـ/١١٨٦م عندما مرض صلاح الدين في أثناء حصاره لمدينة الموصل، وكاد مرضه الشديد يؤدي بحياته[١٦٠]، وبدأت المطامع بين كبار أفراد الأسرة الأيوبية لخلافته في رئاسة الدولة، مستغلين صغر أعمار أبنائه، لذلك غادر ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه نائب حمص معسكر صلاح الدين، وتوجه إلى حلب وخطط لضمها في حال إعلان وفاة صلاح الدين، واتصل ببعض رجالاتها لضمان ولائهم له، ثم توجه منها إلى حمص لتجهيز قواتها للانقضاض على السلطة، غير أنه ما لبث أن توفي بمرض غريب اتهمت بعض المصادر، فيما بعد، زوجته شقيقة صلاح الدين بدس السم له[١٦١]، وكان ناصر الدين يعلن أنه أحق بالسلطة حتى من صلاح الدين لكونه وريث أسد الدين شيركوه، الذي هو مؤسس سلطة الأيوبيين[١٦٢].

واستغل العادل شقيق صلاح الدين مرضه أيضاً، فغادر نيابته حلب، وتوجه إلى معسكر صلاح الدين ليضمن سيطرته على الدولة والسلطة في حال وفاته من خلال السيطرة على معسكره

١٥٨. صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٨.

١٥٩. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥،ص٤٥.

١٦٠. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥١٧؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٤٤، البنداري، سنا البرق الشامي، ص٢٦٧، أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٣٥.

١٦١. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥١٧-٥١٨ (واتهم صلاح الدين بأنه دس السم له)، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٣٠٨ (ولمح إلى زوجته)، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٧٤.

١٦٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥١٨.

وقواته[١٦٣]، وكان تقي الدين كبير الأسرة الأيوبية بعد صلاح الدين، وأبرز قادته الميدانيين، وأكبر مُقطع في دولته، ونائبه على مصر وحماة، ومسؤول مشروع الشمال الإفريقي، عندما وصلته هذه الأنباء اعتبر نفسه الأحق بالتولي بعد عمه صلاح الدين، لذلك بدأ يُعد العدة للسيطرة على الدولة بعده، وظهر من تصرفاته وأعماله في مصر ما يؤيد هذا الأمر[١٦٤]، وربما لهذا الأمر، وخشية من تسرع تقي الدين بإعلان السيطرة على مصر، أرسل صديقه القاضي الفاضل أكثر من رسالة له تؤكد تعافي صلاح الدين من مرضه[١٦٥].

رتب صلاح الدين بعد تعافيه من مرضه، ونتيجة لما حدث في أثناء مرضه، وبعد عقده صلحاً أخضع بموجبه الموصل لسلطته، شؤون الدولة، وإقطاعياتها، ليضمن انتقال الحكم من بعده لأبنائه، فعهد ولاية حمص وشؤونها بعد وفاة ناصر الدين، وعزل العادل عن حلب، لابنه الظاهر، ثم عزل تقي الدين عن مصر، مما فجر مشكلة بينهما، ففي الوقت الذي لم يكن العادل يمتلك من مصادر القوة في مواجهة صلاح الدين شيئاً، فانصاع لأمره من غير أي تردد، كان تقي الدين يمتلك من الأموال، والإقطاعات، والقوات التي هي نخبة الجيش الأيوبي ما يمكنه من معارضة صلاح الدين، ولكنه بقي وفياً لعمه، وعبر عن غضبه برغبته بمغادرة مملكة عمه إلى الشمال الإفريقي لقيادة قواته ودعمها هناك وضمان السيطرة عليها، وإيجاد مملكة له لا يستطيع عمه عزله عنها، رغبة منه بعدم الصدام مع صلاح الدين، ولذلك عسكر ظاهر القاهرة مع نخبته العسكرية استعداداً للانتقال لبرقة[١٦٦]، غير أنَّ صلاح الدين المدرك لخطورة انتقال أبرز قادته العسكريين مع نخبة قوات جيشه خارج مملكته على أوضاع الدولة الأيوبية، قام بإرسال مجموعة من القادة العسكريين لإقناعه بالعودة إلى الشام، وأوعز إلى القاضي الفاضل صديق تقي الدين بمراسلته لإقناعه، وما جاء في رسالته:"سبب هذه الخدمة ما اتصل بالمملوك من تردد رسائل مولانا في التماس السفر إلى المغرب... يا مولانا، إلى أين؟ وما الغاية؟ وهل نحن في ضائقة من عيش؟ أو في قلة من عدد؟ أو في عدم من بلاد؟ أو في شكوى من عدم؟... وكيف نعدل إلى حرب الإسلام المنهي عنها ونحن في المدعو إليها من حرب أهل الحرب"[١٦٧]. وراسله صلاح الدين شخصياً موضحاً له مخاطر قراره[١٦٨]، وهو الأمر الذي دفع تقي الدين لتقديم مصلحة الدولة الأيوبية على مصالحه، ورحل إلى الشام حيث استقبله صلاح الدين، وزاد في إقطاعاته الشامية[١٦٩]، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يتنازل بها تقي الدين لمصلحة الدولة الأيوبية، فقد

١٦٣. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٢٦-٢٢٧؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٣٩.
١٦٤. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٣٤.
١٦٥. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٢٧؛ ابو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٤٢-٢٤٣.
١٦٦. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٢٣؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص٢٨٠؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٥٦.
١٦٧. أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٥٨.
١٦٨. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٢٤.
١٦٩. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٢٤؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٥٠؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ص٢٨٠؛ أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٥٧.

تنازل عن سنجار إقطاعه مقابل تسليم حلب لصلاح الدين[١٧٠]، وكذلك موافقته على التنازل عن حلب التي وُعِدَ بها عند صلح حلب لعمه العادل مقابل ولايته على مصر[١٧١].

وبالتالي فإن تصرف تقي الدين لم يكن خيانة لصلاح الدين أو تمرداً عليه، وإنما كان محاولة منه لخلافة عمه، لأنه رأى نفسه الأحق بالحكم، ثم لما شفي عمه، سرعان ما اقتنع بوجهة نظر عمه،وعاد إلى الشام مخلصاً للدولة، ولعمه، وظل أبرز المقاتلين والقادة في صفوفه.

ولعل ما حدث نبه القاضي الفاضل إلى أن تقي الدين والعادل بذلا جهوداً في إنشاء الدولة الأيوبية، وهما أكبر أفراد الأسرة، فلما قسمت الولايات الأساسية في الدولة على أبناء صلاح الدين، وأبعد الاثنان عنها، فربما يؤدي ذلك إلى تقاعس في عملهم لمصلحتها، ولذلك أرسل رسالة إلى صلاح الدين أكد فيها على أنَّ ما هما أخ ولا ابن أخ، بل هما ولدان... فلا يقنع كل واحد منهما إلاَّ طرف يملكه، وإقليم ينفرد به، فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيه صدره الواسع"[١٧٢].

أما المشروع الأخير لتقي الدين، فهو مشروع الجزيرة الفراتية والبلاد الشرقية حيث أنه أُقطِع تَلك البلاد في سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م ضمن مكافأة صلاح الدين له على جهوده العسكرية في مواجهة الفرنجة الصليبيين منذ سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ولمواجهته ودوره الفاعل للحملة الفرنجية الصليبية الثالثة، حيث أُقطِعَ حَرَّان والرُّها، وأرسُلِ إليها في صفر سنة ٥٨٧هـ/شباط ١١٩١م، وكان الاتفاق بينه وبين صلاح الدين أن يذهب إليها، ويرتب أمورها، ويقطعها لمن يريد من جنوده، ثم يعود مع قواتها لمواجهة الفرنجة، فلما عبر الفرات، وأصلح حال البلاد التي أُقطِعَها، سار إلى ميافارقين وكانت له منذ سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م، وهناك اكتشف ضعف حكام المنطقة، فطمع في ضمها لحكمه، وبدأ مشروع السيطرة على ديار بكر من خلال احتلاله لحاني، ثم تواجه مع حاكم خلاط وهزمه، وحاصر مدينته، غير أنَّ محدودية عدد فرسانه وعدم وجود معدات حصار معه، دفعته لتركها، ومحاولة السيطرة على ملاذكرد التي مات وهو يحاصرها في عام (٥٨٧هـ/١١٩١م)[١٧٣].

هذا ما حاولت المصادر تصويره أن تقي الدين بدأ تنفيذ مشروع خاص به بعيداً عن صلاح الدين، ومن غير رضاه، وأن أخبار تقي الدين انقطعت عنه، وقام بحروبه من غير علم صلاح الدين، وأنَّ هذا المشروع كان عاملاً رئيساً من عوامل سقوط عكا، وسوء العلاقة مع الخلافة العباسية.

غير أن تدقيق الأخبار في المصادر يؤكد أن تقي الدين لم يرافقه سوى سبعمائه مقاتل، و أن جيش حماة كان راضياً عن مشروعه، وأن القوة الوحيدة التي لم تقدم إلى عكا بسبب مشروع تقي

---

١٧٠. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٤٣.

١٧١. المصدر نفسه، ص١٥٤.

١٧٢. أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٢٦٠.

١٧٣. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص٥٦٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٦٢-٦٣، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٣٨٤-٣٨٥؛ أبو شامة، الروضتين، ج٤، ص٢٤٠، ٢٥٣، ٢٨٤-٢٥٨؛ ابن واصل، مفرح الكروب، ج٢، ص٣٥٤، ٣٧٥-٣٧٦.

الدين هي قوة ديار بكر، وهي قوة ضعيفه غير مؤثرة في المعركة، فكيف ينسب صلاح الدين المطلع على كل تلك الأمور سقوط عكا لتقي الدين؟

إن ترتيب الأحداث يُظهر أن صلاح الدين كان على اتصال دائم بتقي الدين الذي أرسُل لتنظيم إقطاعاته الجديدة، والتوسع في البلاد الشرقية إن تمكن من ذلك، وهو ما نفذه تقي الدين، وكانت آخر رسائله لصلاح الدين قد وصلت في ١٩ رمضان سنة ٥٨٧هـ/١٢ تشرين الأول ١١٩١م تتضمن تقريراً عن أوضاع المنطقة الشرقية، وفيها خبر وفاة أتابك قزل بن إلدكز حاكم أذربيجان وغيرها من البلاد مقتولاً، مما يدل على استمرار التواصل بين صلاح الدين وتقي الدين، إضافة إلى أن أبن شداد القريب جداً في تلك السنة من صلاح الدين، وأحد الذين علموا خبر وفاته من صلاح الدين لم يذكر ما يشير إلى تحميل صلاح الدين مسؤولية سقوط عكا لتقي الدين، ولا استياءه من أعماله في البلاد الشرقية[١٧٤].

ولكن صلاح الدين أجبر، فيما يظهر، على إظهار عدم علمه بنوايا تقي الدين لما وصلته رسل الخلافة العباسية مستاءة من توسع تقي الدين، إلى إعلان عدم أمره لتقي الدين بشيء مما يحدث، وأنه لا يعلم ما يفعل هناك، فقال في رده للخلافة:"إنا لم نأمر تقي الدين بشيء من ذلك، و إنما عبر ليجمع العساكر، ويعود إلى الجهاد"[١٧٥]، وخصوصاً أن صلاح الدين وصلته أنباء التحالف الذي عقد بين حكام خلاط وملاذكرد، وديار بكر، والموصل مع الخلافة العباسية ضد تقي الدين، فآثار هذا الأمر مخاوف صلاح الدين من انتقال الأمر إلى عداء مع الخلافة، فبدأ يصرح أمام بعض المرتبطين بالخلافة أنه لا علاقة له بما يفعله تقي الدين[١٧٦].

ولعل ما يعزز هذا الأمر أن العماد الأصفهاني نقل على لسان تقي الدين نفسه مخاطباً صلاح الدين عندما أراد المغادرة للبلاد الشرقية قوله"أتيكم بعد أشهر بأوفى عسكر"[١٧٧]، إذا كان وعده العودة بعد أشهر، فإذا علمنا أنه غادر عكا في صفر سنة ٥٨٧هـ/شباط١١٩١م، وأن عكا سقطت في ١٧ جمادى الآخر سنة ٥٨٧هـ/٢ تموز ١١٩١م[١٧٨] يتبين أن تقي الدين لم يغب حتى سقوط سقوط عكا سوى أقل من أربعة أشهر، وعليه فهو لم يخلف وعده مع صلاح الدين بالعودة بعد أشهر.

وأكد ابن شداد على أنَّ ــ الخلافة العباسية أرسلت رسالتين تتعلقان بعمليات تقي الدين في البلاد الشرقية، الأولى في ٢١ رمضان/تشر١٤ تشرين الأول تتضمن ذكر قصد الملك المظفر لخلاط، وتطلب فيها من السلطان العناية ببُكْتُمر (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م) صاحب خلاط، وكان ردُّ

١٧٤. ابن شداد، النوارد السلطانية، ص٣٣١، ٣٤٠.
١٧٥. أبو شامة، الروضتين، ج٤، ص٢٨٥.
١٧٦. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢١، ص٣٨٤.
١٧٧. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص٤٦٩.
١٧٨. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص٥١٣، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٩٧.

السلطان الكتابة إلى المظفر بذلك[١٧٩]، ثم وصلت رسالة جديدة في ١٢ شوال من سنة ٥٨٧هـ/٢ تشرين الثاني ١١٩١م.

وكان صلاح الدين قد وصله في ١١ شوال/١ تشرين الثاني خبر وفاة تقي الدين، وتتضمن الرسالة لهجة عدائية من الخلافة العباسية تجاه صلاح الدين على أعمال تقي الدين، وتضمنت، "الإنكار في المظفر في مسيره إلى بكتمر، وبولغ فيه حتى قيل أن الديوان العزيز لن يسلمه"[١٨٠]، فرد صلاح الدين الذي انتهى مشروعه بوفاة تقي الدين لدفع التهمة عنه، وتحسين علاقته بالخلافة" أنا لم نأمره بشيء من ذلك، وإنما عبر ليجمع العساكر ويعود إلى الجهاد فاتفق أسباب اقتضت ذلك وقد أمرنا بالعود عنه"[١٨١]

إن كل هذه الأدلة لتؤكد أن مشروع البلاد الشرقية كان بالاتفاق مع صلاح الدين، وبعلمه ورضاه، وكان يعلم أن تقي الدين سيتأخر في تنفيذه لأشهر عن عكا، ولذلك لم يحمله شيء في رسالة الخلافة الأولى، في حين لما علم بوفاته وانتهاء لمشروع، قام لتحسين علاقته بالخلافة، ولضمان عدم قيام تحالف بين الخلافة وقوى البلاد الشرقية ضده، مما يشكل عبأً ثقيلاً عسكرياً عليه، وفقدان لجزء من شرعيته ا لدينيه، لذلك تبرأ من المشروع، وجعل مسؤوليته على تقي الدين لوحده، وأعلن عدم معرفته بما يفعل، وأن تأخره أدى لسقوط عكا.

الخاتمة:

يُستنتج مما سبق مجموعة من النتائج الأساسية التي خلصت لها الدراسة وهي:

أولاً: أن تقي الدين ولد في أسرة عسكرية لم تكن قد تبوأت مكاناً مرموقاً في الدولة الزنكية، وكانت أهمية تلك الأسرة تأتي من احترافها العسكري، وثقافة بعض أفرادها، مما أثّر في تربية تقي الدين بتوجيهه نحو التدريب العسكري، والتعليم، مما أدى إلى بروز تقي الدين قائداً عسكرياً في صفوف الدولة الأيوبية، ومثقفاً مهماً في عصره.

ثانياً: كان تقي الدين قرين بالعمر لصلاح الدين، وتربيا مع بعضهما بعضاً، مما جعل تقي الدين أقرب للشقيق لصلاح الدين منه إلى ابن الشقيق، وعليه يجب أن تفهم العلاقة بينهما بناءً على هذا السياق.

ثالثاً: تبين من الدراسة أن تقي الدين كان أبرز القادة العسكريين الميدانيين في دولة صلاح الدين، وكان ساعده الأيمن في جميع معاركه.

رابعاً: أضحى تقي الدين أكبر أفراد الأسرة الأيوبية سناً بعد سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م وأكبر المقطعين في دولة صلاح الدين مما يؤشر لعظم مكانته، وحجم الدور المنوط به في الدولة.

خامساً: أثبتت الدراسة أن ولاء تقي الدين كان مطلقاً لصلاح الدين، وأن جميع مشاريعه

١٧٩. النوادر السلطانية، ص٣٣٢.

١٨٠. المصدر نفسه، ص٣٤٢.

١٨١. المصدر نفسه، ص٣٤٢.

السياسية والعسكرية كانت ضمن المشاريع الإستراتيجية لدولة صلاح الدين، وبأمره، وتحت إشرافه.

سادساً: رأى تقي الدين نفسه الأحق بوراثة الدولة وزعامته بعد عمه صلاح الدين، غير أنه فضل مصالح الدولة في كثير من المناسبات على مصالحه الشخصية.

سابعاً: راعى صلاح الدين انجازات وطموح تقي الدين، ولذلك كان دائم الزيادة له في اقطاعاته لدرجة أنه اقطاعاته شكلت أوسع إقطاع في كل الدولة الأيوبية.

Prince Muzaffar Taqi al-Din Omar al-Ayyubi, and his role in the Ayyubid State (1169-1191a.h/565-587h)

Issam-Okleh*, Fawzi Al-Tawuhyeh *

ABSTRACT

This study aims to shed light on the aspects of the Ayyubid history, by recognizing the role of one of the prominent leaders in the reign of Saladin. And the extent of military contributions to the victories of the reign of Salah al-Din, administrative and urban and philanthropy and its role in the era of Salah al-Din, also the statement of the validity of what spreads the sources of conflict happened between him and Salahaddin big political ambitions, and try to get to know his biography, and to clarify its role in addressing the Crusaders Frenjah, and edit Islamic lands for them, trying to put his role in the proper place, then extent of his impact on the movement of jihad against the Frankish Crusaders.

KEYWORDS: Taqi al-Din Omar, Salah al-Din, the State, the Crusaders.

* Department of History, Faculty of Arts, The University of Jordan.
Received on 4/12/2014 and accepted for publication on 22/1/2015.